رندة الخالدي

# امرأة ذات قلب

## تجربة امرأة عربية في عالم الدبلوماسية والإعلام



دار العلم للملايين


امرأة ذات قلب
تجربة امرأة عربية في عالم الدبلوماسية والإعلام

رندة الخالدي




تجربة امرأة عربية في عالم الدبلوماسية والإعلام

دار العلم للملايين

**دار العلم للملايين**

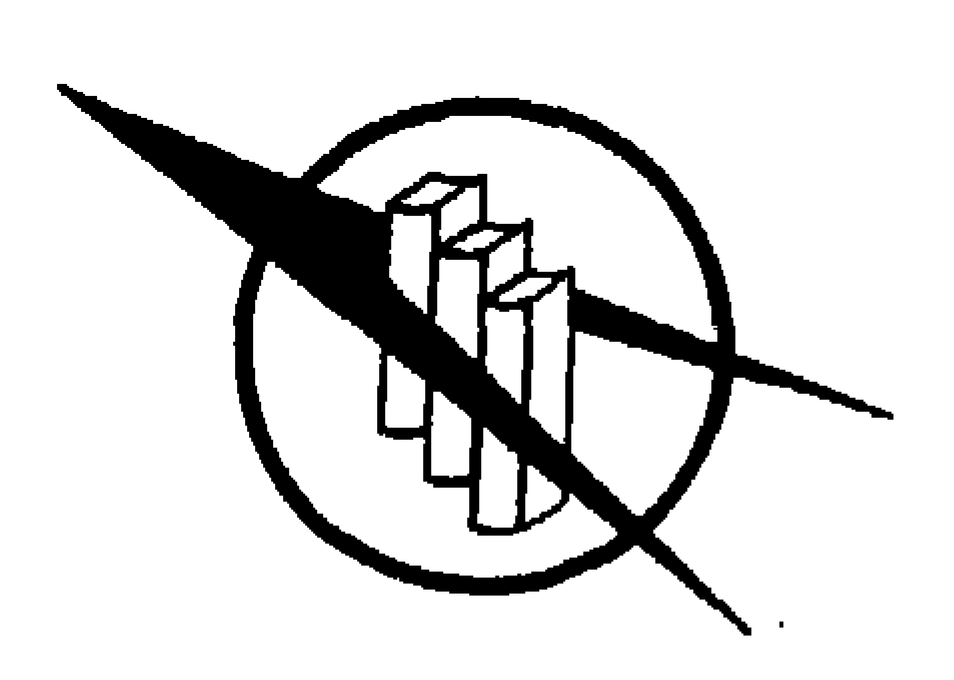
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس ـ خلف ثكنة الحلو

ص ب ١٠٨٥ ـ تلفون: ٣٠٤٤٤٥ ـ ٨٦٣٤٧٤

برقياً: ملايين ـ تلكس: ٢٣١٦٦ ملايين

بيروت ـ لبنان





الطبعة الأولى

أيلول / سبتمبر ١٩٩٢

ولدت المؤلفة رندة أحمد سامح الخالدي في القدس عام ١٩٣٥، وهي متأهلة من ضياء الله الفتال سفير سوريا ومندوبها الدائم إلى الأمم المتحدة.

تلقت علومها الابتدائية في مدرسة راهبات صهيون في القدس، والثانوية في كلية البنات الأهلية في بيروت وفي مدرسة أكسفورد الثانوية في مدينة أكسفورد في إنكلترا، وحصلت على الشهادات التالية:

بكالوريوس آداب في الأدب الإنكليزي بشرف من جامعة أكسفورد، ١٩٥٧، وماجستير آداب في الأدب الإنكليزي بشرف من جامعة أكسفورد، ١٩٦٠، وزمالة في جامعة هارفارد في الولايات المتحدة.

- وقد قامت بتدريس الأدب الإنكليزي في جامعة دمشق وفي الجامعة اللبنانية.

- كما قامت بإلقاء العديد من المحاضرات في الجامعات الأميركية والبريطانية والسويسرية.

بالإضافة إلى ذلك فقد شغلت المناصب التالية:

مذيعة ومعلقة وصاحبة برامج في القسم الإنكليزي في إذاعة دمشق ١٩٦٦ ـ ١٩٦٨، ورئيسة تحرير مجلة «العالم العربي» الإنكليزية ونشرة «أخبار وآراء عربية»، ومديرة مكتب الجامعة العربية للإعلام في نيويورك ١٩٧٠ ـ ١٩٧١، ومستشارة تحرير لمجلة «مواقف عربية» الإنكليزية، وعضوة في الوفد الفلسطيني إلى دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة عامي ١٩٧٤ و١٩٧٥.

كما عملت في الاتحاد النسائي الفلسطيني والاتحاد النسائي السوري، وشغلت منصب سكرتير تنفيذي لمجلس النساء العربيات في الولايات المتحدة.

# المقدمة

ظروف عديدة، معظمها خارج عن إرادتي وخياري، اجتمعَت لتُثقلني بذكريات حياة غنيّة بالأحداث حافلة بالتجارب منها المشرق ومنها القاتم.

ضياع فلسطين الذي تسبّب في خلع جذوري من بلدي الأصلي وما زلت طفلة نتج عنه تكاثر تلك الجذور وإعادة غرسها في أراضي الوطن العربي الشاسعة؛ دراستي الثانوية والجامعية في الخارج وسّعت آفاقي وسارعت في نمو ردود فعل وقائية لمجابهة العنجهية الغربية وتهجمها المستمر على العرب والعروبة؛ سلك التعليم الذي أعود إليه بشوق بعد كل فترة غياب مدّني بغذاء ذهنيّ وعاطفيّ لا يعرفه إلا من سنحت له الفرصة أن يحتك بأجيالٍ من الشباب ويجدد نفسه مما يستوحيه من عيونهم البرّاقة المتعطّشة للعلم والاطلاع، أما زواجي من دبلوماسيٍّ سوريٍّ كاهنٍ في معبد العروبة فقد أتاح لي الالتقاء مع رفيق متفرّغ للدفاع عن القضايا العربية العادلة. بحكم عمله عصفت بنا الرياح إلى آفاق العالم فاستسلمت وإياه إلى قدرٍ حوّلنا إلى حجارة شطرنج تُنقل من بلد إلى آخر دون استشارة أو سابق إنذار أو استعدادٍ نفسيٍّ أو عمليّ، ولا زلنا مجنّدين حتى يومنا هذا.

لو عدت وخُيِّرت لما انتقيت حياة البداوة تلك، فبدلاً من

الحياة الطبيعية ذات البداية والمسيرة والنهاية فُرض علينا نمط من الحياة برّاق في مظهره فارغ متعِب في معانيه وتطبيقه.

فلكلٍّ من حسد دبلوماسيًّا وتمنى ممارسة المهنة أقول كما طالما ردّدت لزوجي: «يا ليتني تزوجت من موظف في وزارة الأوقاف لكنت احتفظت بماضيّ وعشت حاضري وخطّطت لمستقبلي».

تقسّمت حياتنا نحن إلى أجزاء، لكل جزء منها بداية صادِمة ونهاية مفاجئة، فمن الناحية الإنسانية والاجتماعية لا صداقات ولا جيرة ولا عائلة متكاتفة، وكانت النتيجة جمع المعارف بدلاً من الأصدقاء وتخزين الأسماء والصور وبطاقات زيارة آلاف من الأشباح.

إذاً فإن بريق الحياة الدبلوماسية بريق خادع مزيّف، فلولا الاحتفاظ بالاتّزان وبروح النكتة لاهتزّت عقول معظم الدبلوماسيِّين وتضعضعت قيمهم.

أذكر أني قرأت مرة في صحيفة فرنسيّة خبر جريمة ارتكبها سفير فرنسي سابق عاد إلى بلاده ليجد نفسه مواطناً عاديًّا، ولم يحتمل عقله هذه العودة إلى الحقيقة فأين العلَم؟ وأين الخدم؟ وأين الألقاب والأضواء؟ وفي ذات ليلة تناول بندقيّته وأطلق الرصاص على زوجته وأولاده وكلبه قبل أن يوجِّه الرصاصة الأخيرة إلى رأسه. مصير مؤلم لمن يأخذ الحياة الدبلوماسية بجدّية فيتعلّق بتقاليدها البالية ويتمسّك بحصاناتها فيفقد حصانته عند فقدان هذه الحياة الأرستقراطية المؤقتة.

أما المرأة في تلك المجتمعات ـ وهنا أعني الزوجة ـ فينحصر دورها في تمثيلٍ زخرفيٍّ محض، إما في قاعات الكوكتيل أو على موائد العشاء المملّة حيث يمرّ حديث الرجال من وراء ظهرها أو من أمامها فتبتسم مشجِّعة أو تهزّ رأسها موافقة.

وإن تكرّم سعادة السفير إلى يمينها وخاطبها مباشرةً تدبّ في صوته لهجة تنازل ومسايرة كثيراً ما يستخدمها الكبار عند مخاطبة الأطفال المهذّبين.

أول من ساعدني على الانتشال من ورطتي تلك كان زوجي ومن ورائه دولته التي ساندتني دوماً في نشاطاتي الإعلامية بل ورشّحتني مراراً لاحتلال مناصب إعلامية، فشكراً لسوريا العربية التي عشقتها قبل عشقي أحد أبنائها وزواجي منه.

أما المجموعة التي أضعها بين أيديكم اليوم فهي عبارة عن خمس عشرة لوحة واقعيّة عشتها شخصيًّا منذ عام ١٩٦٨ إلى يومنا هذا بحكم عملي كإعلامية في الولايات المتحدة الأميركية، وقد اخترت أن أسردها دون «ملح أو بهار». فهي ليست قصصاً قصيرة ولكنها حصائل تجارب وانطباعات وآراء تعكس جوّ الساحة الأميركية التي تدور فيها المعارك الإعلامية العربية ضد الصهيونية وأبواقها الضخمة.

مع أن بعض تلك الوقائع جرى منذ سنوات، فالساحة لم تتغير ألبتة. كما أن اللاعبين ما زالوا على حالهم يستخدمون الأساليب نفسها ويخوضون المباريات نفسها.

أعترف أني ترددت بين الإنكليزية والعربية قبل اختيار لغة التعبير عن هذه اللوحات. ثم أدركت أني أخاطب كقرّائي المثاليِّين شبابنا العرب الذين أتشوّق إلى مشاركتهم تجاربي. وبالرغم من أني الآن في عمر أمهاتهم فهم المقصودون وإليهم أوجّه كلماتي وأفضفض عن شعوري وخواطري. اسمحوا لي أن أفاخر أن بيني وبين الشباب تفاهماً وتعاطفاً لم ينقصا مع تقدُّم عمري، بل وكأن فرحتي بهم تكبر وأملي فيهم يزيد.

أما بالنسبة لأسلوبي في العربية فلقد اخترت أن أتفادى كل ما هو معقّد ومنمّق، فاتّبعت أسلوب البساطة في التعبير متأثِّرة بالكتّاب المعاصرين من جميع أنحاء العالم، ومسايرةً لعصر السرعة.

وأنهي مقدمتي بتهنئة نفسي لاطلاعي، بطريق الصدفة، على الأعمال الكاملة للفنانة العربية البارعة «أسماء فيومي» في الوقت الذي كنت فيه منغمسة بكتابة هذه اللوحات، وما إن تمعَّنت في أعمالها حتى لمستُ تناغمَ روحي بين ما ترسمه هي من لوحات وما أكتبه أنا. وتكرَّمَت «أسماء» ومدَّتني بلوحاتها الرائعة دون تردد، بما في ذلك الغلاف.

فلها حبّي وتقديري، ولها وعدي بأننا سننتمي دوماً إلى الأختية نفسها.

# دم لا ينبض

استيقظنا ذات صباح نيويوركي على خبر تحطُّم باص مدرسيٍّ قرب الأراضي اللبنانية المحتلة: خبر يهزّ الضمير الأميركي فيرتجف غضباً ويستنكر استنكاراً شديد اللهجة، فتوجَّه لتوّها التحذيرات وتطلق الإنذارات. هذا في زمن تنزف فيه دماء أطفالنا العرب وتحترق جثثهم من جرّاء قنابل الطائرات الإسرائيلية، فتستحقّ تلك الأحداث المتكررة خمسة سطور على الصفحة الثامنة من جريدة «**النيويورك تايمز**».

إن موت طفل ـ أيّ طفل ـ فاجعة ولكن أين العدل عندما يُنتظر من الشعب الأميركي أن يبكي أطفال إسرائيل الشُّقر ويتمعّن بصورهم ويتعاطف مع أهلهم المفجوعين، بينما يبقى أطفالنا العرب بلا اسم ولا وجه ولا أهل.

وكما يُملي علينا الواجب والقدر الساخر معاً ابتدأنا في نيويورك حملة دفاع عن النفس حال إذاعة «الفاجعة الكبرى» «والجريمة الهمجية» بحق أطفال إسرائيل الأبرياء. وما إن استويت في مقعدي في مكتب الإعلام للجامعة العربية في مدينة نيويورك حتى ابتدأنا نرسم مخطَّطاً بإدارة مدير مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في المدينة نفسها. واتفقنا على رؤوس أقلام بيانٍ تُرك لي أمر صياغته النهائية. فالصحافة الأميركية تتوقع منا

ردود فعل سريعة عند كل حدث إلا أنها نادراً ما تشير إليها أو تأخذها مأخذ الجد. لم تمرّ ساعة إلا وكان البيان قد جهز فطلبت مدير مكتب المنظمة هاتفيًا لأقرأه عليه وأحصل منه على موافقته قبل طبعه ونسخه وتوزيعه.

وبينما كنا منهمكين في التعليق هاتفيًا: المدير يبدي ملاحظاته على بعض النقاط وأنا أقرّها أو أرفضها من جهتي، إذا بالمكالمة تنقطع بطريقة فجائية. طلبت مقسّم مكتبي بعصبية مصرّة على إعادة ربطي فوراً بمكتب منظمة التحرير:

ـ ولكن مكتب المنظمة لا يجيب!

ـ كيف لا يجيب وقد كنت لتوّي أتكلم مع المدير؟ ثم إن للمكتب عدة خطوط هاتفية فالرجاء استعمالها الواحد تلو الآخر دون توقّف ـ فالأمر مستعجل جدًا.

مرّت دقائق وأنا أتحرّق غيظاً وكأنّ مصير فلسطين يتأرجح على عنقي فإذا بالسكرتيرة تدخل مكتبي وهي تلهث:

ـ يبدو أنه حصل اعتداء على مكتب منظمة التحرير.

ـ اعتداء؟ مِن قبل مَن؟

ـ لا أدري.

ولم أفهم من سكرتيرة المدير إلا كلمة «دم» كانت تردّدها وكأنها مذهولة.

ما زلت ليومي هذا أسمع نغمة دقات قلبي وأنا أركض الكيلومترين اللذين يفصلان بين مكتبينا. كما أذكر أني كنت

أتمسّك بقلم في يدي، لعلّي اعتبرته السلاح الأكيد ضد أعداء أشرار ينتهكون حرمة أرض عربية!

وجدت الباب الخارجيّ للمكتب مفتوحاً على مصراعيه وبدت غرفة الانتظار وكأنها ضحية زوبعة مرّت عليها فحطمت رفوفها وبعثرت أوراقها ونثرت كرّاساتها هنا وهناك. اتجهت مسرعةً نحو غرفة المدير فإذا به لا يزال يربض على كرسيه ورأسه منحنٍ والدم يسيل على الأرض من حوله. أما مكتبه فبدا كقبر منثور وعلى طرفه تدلّت سماعة هاتف ترنّ بانتظام رنّة خطٍّ مشغول. لم أكن أدري أن دم الإنسان يسيل بهذه الكمية الكبيرة. من يدري لعلّ (الخال) ـ وهو اللقب الذي كنّا نطلقه تحبُّباً على مدير مكتب المنظمة ـ كان يخزِّن فائضاً ضخماً من الدم الفلسطيني الزكي.

رفعت رأسه بيدي فابتسم ابتسامة واهية محاولاً تفسير ما جرى. ولكني تداركت بسرعة جدول الأهميات لديه: سيجارة ـ هذا ما يشتهيه الآن وقبل أي أمر آخر بما في ذلك غسل جروحه وتضميدها.

أشعلت سيجارة ووضعتها بين شفتيه الداميتين وأنا أسند رأسه بيدي الأخرى فاتسعت ابتسامته وانتظم تنفُّسه. نظرت حولي فلمحت شبح نعمتي ـ السكرتيرة ـ وهي تقف وراء الباب وترتجف كأرنبة مذعورة.

فوجىء الأصدقاء الذين هرعوا عند سماع النبأ بمنظرنا

المضحك المبكي: سالومي تحمل رأس يوحنا الدامي وتحشر سيجارة بين شفتيه. استلمه بعضهم مني لفحص جروحه ومداواتها فسار مُتكئاً عليهم وهو ينظر إلى الخلف وكأنه يتحسّر على سيجارته. ما دام يشتاق إلى دخانه بهذا الشكل فهو والحمد لله بألف خير. وفي تلك الأثناء عثر الأخوة على عدّة مناشير تُركت عمداً من قِبَل المعتدين وعليها العبارة التالية:

«لن نسمح بذلك أن يتكرر بعد اليوم» وهي العبارة المفضّلة لدى «عصبة الدفاع اليهودية» التي تنادي يهود العالم إلى عدم الاستسلام لمجازر أخرى.

كان علينا أن نعمل ونعمل بسرعة. وتغلّب الحسّ الإعلامي على الإحساس الإنساني فنسينا «الخال» يتألم ويُداوى في غرفة أخرى وأعرنا انتباهنا الكامل للسباق أو للسبق الإعلامي الذي نخوضه: تلك هي فرصتنا الذهبية لتحويل الأنظار عن الباص وعن الأطفال الإسرائيليين وعن الدعاية الصهيونية الخبيثة.

تقرَّر عقد مؤتمر صحفي في مقرّ المنظمة وهو لا يزال في حالته الراهنة وذلك لجذب الانتباه الأميركي إلى إرهاب يُقترف في بلادهم وفي مكتب يقع على أمتار من مقرّ هيئة الأمم المتحدة.

وجدت نفسي على الهاتف أطلب أرقام الصحافة والإذاعة والتلفزيون داعيةً إياهم إلى ما أسميناه أرض فلسطينية نُقشت دراماتيكيًّا ببقع من دم «الخال» الغزير.

ولم تمض دقائق حتى اكتمل شمل الصحافة الأميركية

السريعة البديهة السريعة التحرُّك. فاستقبلناهم بحماس يليق بفضولهم:

ـ «لقد أُريق اليوم دم رجل فكر فلسطيني لا يشهد سجلُّه إلا عن دفاعه المستميت من أجل استرجاع حقوق شعبه المغتصبة. انظروا إلى دمه الزكيّ يغطّي أرض مكتبه وهو الذي كان يترك بابه مفتوحاً للإجابة عن أيّ سؤال حول قضية الشرق الأوسط. وهذه الجريمة التي اقتُرفت في بلادكم ليست إلا تحدّياً لأنظمتكم وللحقوق التي تحمونها وأهمّها حق الإنسان في التعبير عن آرائه بحرِّية كاملة. وها نحن نرى «عصبة الدفاع اليهودية الأميركية» تلجم بوحشيّة كلَّ من يعبّر عن رأي لا يستسيغونه. دعونا نتساءل إذاً من هم الإرهابيّون الحقيقيّون؟

أَهُمُ الفلسطينيُّون الذين يقاومون ضدَّ المحتلّ أم هم العصابات النازيّة التي تحاول طمس الحقيقة بالقوة؟ لقد خطّطت «العصبة» كما ترون قتل شخص أعزل من السلاح لا تحميه إلا سكرتيرة ما زالت ترتجف خوفاً». وأضفت أشياء أخرى وأعطيتهم معلومات دقيقة وأخرى مضخّمة بعض الشيء، ثم سكتّ.

ابتعدت الميكروفونات من حولي فارتخيت في كرسيّ «الخال» وأنا أهنىء نفسي بنجاحنا في تقبيح صورة اليهود، وبإلهاء القرّاء والمستمعين الأميركيّين عن المصيبة الإسرائيلية ولو لحين.

ولم تمرّ ثوانٍ إلا وكان تصريحنا يُذاع على الهواء مِن قِبَل

عدّة إذاعات محلّية أحدثت صدى فتلقّتها إذاعات أخرى عبر الولايات.

ولم يعد لدينا إلا أن نجلس ونتسامر مع الزوار الذين انهالوا علينا، وإذا بي أُستدعى إلى هاتف مستعجل:

ـ زوجي. ماذا حصل لزوجي؟ هل هو حيّ أم ميت؟ لقد سمعت لتوّي على الإذاعة أن دمه يغطي المكتب ـ زوجي أرجوكِ ـ أخبريني.......

ـ زوجك!؟ زوجك؟! آه... تعنين «الخال»؟ لا تقلقي ها هو في غرفة الانتظار ينزف ويدخّن ويبتسم.

# النعـــي

أعضُّ على شفتي السفلى بشدّة، لا ليس ندماً، إنما للتأكّد من أنها حقًّا تؤلمني، أقرص جلدي فأدرك أن الفرصة هي فرصتي، أضع راحتي على جبيني فأزِن حرارة جسدي الطبيعية، أحرّك يديّ الاثنتين فتتجاوب العشرة دون استثناء وكأنها تطمئنني، أغمز بعينيّ فيتجاوب الجفن بخفة، أنظر في المرآة، أتحسّس الأشياء الجامدة والحيّة، ألتفت حولي فأجد أحبّائي وأقاربي وجيراني ومعارفي، إذاً، أنا ما زلت هنا غير أني متأكّدة من أني تركت إلى هناك!

أتُرى الحياة مقسّمة بين هنا وهناك، وما هناك إلا امتداد لِهُنا؟ مجرّد مرحلة ثانية من الطريق نفسه؟

ثم اسمحوا لي أن أضيف أني إذا كنت فعلاً قد انتقلت فالرجاء اعتباري «شهيدة» ليس بالضرورة من الصنف الأول، فلن تطمئن روحي الحيّة إلا بعد منحها هذا اللقب المستحَقّ.

وإن كنت فعلاً قد انتقلت فستقرأون على شاهدي الفاتحة ثم التاريخين التاليين: ١٩٣٥م - ١٩٨٢م. وإن احترتم واختبرتم مقدرتكم في الرياضيات فستستنتجون أني انتقلت في عمر مبكر نوعاً ما - لن أدّعي أنه الصّبا بعينه وتباعاً لن أتطلب التأسّف على

شبابي، ولكني أتوقّع منكم أنتم المترحِّمين ـ أن تعتبروني قد انتقلت قبل أواني: سبعة وأربعون عاماً فقط!

ترحَّموا إذاً وردِّدوا معي: لم يعرف الشيب طريقه إلى شعرها، أما التجاعيد فخفيفة تزال بعملية تجميلية سهلة، أما الروح فشابّة، وأما النية فطيّبة.

مسكينة! رحمها الله ورَحِمَنا جميعاً أحياءً كنّا أم أمواتاً. كيف هويت في تلك الحيرة؟ ومتى تسرّب هذا الاضطراب وأين؟ هذا ما سوف أسرده عليكم تاركة لكم القرار أو بالأحرى الحكم، آملةً أن تنقذوني من بؤرتي.

آب/ أغسطس عام ١٩٨٢؛ أَحَبّ أحبّائي في الداخل وأنا أستشيط نشاطاً وغيظاً: أمي، إبنتي، أختي، عمّتي، أخواتي، إخواني، كيف السبيل للاحتراق. والاختناق معهم جسديًا وليس نفسيًّا فحسب؟ والمصيبة مصيبة أمّة بأجمعها.

اجتمعنا كنسوة وفكّرنا وخطّطنا كنساء تمخضن فولدن «مجلس النساء العربيات» في الولايات المتحدة، لم يدُم الحمل بكامله أكثر من ساعات، والتهى الرجال عنا فتركونا لشأننا، فأتى المولود كاملاً مكمّلاً نتيجة حمل دون دنس. ولد خالياً من الأخطاء المتكررة في أسلافه كما تحلّى بجينات متنوعة سخيّة أذنت له أن ينطلق كالمارد منذ أن تلقّته أيادي أمهاته اللواتي كن شبه عواقر لحين ولادته. ولم تُكتب له حياة طويلة فمات أو تشوّه مع موت الأزمة، ولهذا حديث آخر. ولكني كإحدى أمهاته سأظل فخورة

بهذا الإنجاز الذي سجّل سابقة لِما يمكن للنساء تحقيقه في مجال الإعلام الذكي.

ـ وقع عليك الاختيار للسفر إلى مدينة «لارامي» في ولاية «وايومنغ». أما الدعوة فهي تحدّد الموضوع «بوضع المرأة العربية في مجتمعها» والباقي متروك لك...

والذي تُرك لي معالجته هو إنجاح أحد أمرين: إما تحويل مجرى المحاضرة إلى الوضع السياسي اللاإنساني في لبنان خاصّةً والأمة العربية عامّة، أو إقناع الدّاعين أن يقيموا محاضرة أخرى ذات طابع سياسي.. وهذا ما كانت بعض الجهات الداعية تتفاداه عمداً لانعدام اهتمامنا في الأمور السياسية، وتهرباً من الخوض في شؤون الشرق الأوسط الغامضة. إن إصلاح الصورة المشوَّهة للمرأة العربية عند الشعب الأميركي واجب مقدّس، إلا أن التأثير على قراره السياسي صيف عام ١٩٨٢ هو ما كنّا نسعى إليه بالسرعة القصوى، مستخدِمين أساليب حديثة بعضها أميركي الصنع. امرأة عربيّة ذات شكل مألوف تصف الوحشية الإسرائيلية مركِّزةً على العنصر الإنساني والخسارات البشريّة، تنادي بالعدالة وتستنجد بمستمعيها أن يمارسوا ديمقراطيّتهم (الخرافيّة) وذلك بنقل آرائهم إلى ممثّليهم في الكونغرس أو مجلس الشيوخ، رسولة كهذه لا بد أن تترك انطباعاً ما..

أضافت إحدى الأخوات في المجلس:

ـ «نرجوكِ أن تصحبي معك موجزاً عن حياتك بناءً على

طلب الجهة الداعية حيث إن الوقت قد فات لإرساله بريديًّا، وسنقوم حالاً بطبع نسخ جديدة نرسلها إليك مع تذكرة الطائرة وما يرافق ذلك من تعليقات».

في اليوم التالي استقللت الطائرة إلى مدينة «دنفر» في ولاية «كولورادو» حيث جلست أنتظر الطائرة الثانية إلى «لارامي».

أُذيع على مكبّر الصوت عن تأهُّب الطائرة للإقلاع فانتصبت وأنا أحمل حقيبة صغيرة فيها بلوزة إضافية وغيار داخلي وبعض رؤوس الأقلام وقُصاصات جرائد. وإذ بي أُفاجأ بدفعي إلى طائرة قزمة تكاد تكون لعبة صبيٍّ صغير، التفتُّ حولي فإذا بي الراكبة المحظوظة الوحيدة.

نظرت إلى السماء فرأيتها ملبّدة بغيوم سوداء قبيحة تدور كالحلزون مهدِّدة باقتراب عاصفة صيفيّة، تردَّدت في الصعود وأنا ما زلت أتلفَّت خلفي عسى أن يلحق بي راكب آخر.

ـ ألا تؤخّرون موعد الإقلاع في أحوال جويّة كهذه أو تلغونه؟

طرحت سؤالي الاستغاثي وأنا أفتعل ابتسامة لامبالية، وكان الجواب أن الأحوال طبيعية جدًّا.

امتطى القيادة شابٌّ أشقر بدا لي وكأنه دون العمر المخوّل له بالطيران، ثم إن لباسه المدني لم يوفّر لي الثقة التي يفرضها لباس قبطان الطائرة المحترم على كل مسافر.

وطرنا وتأرجحنا وتمرجحنا وصعدنا وهبطنا وجبال «لارامي»

الصخريّة على ملمس يد، عانقت حقيبتي مختبئةً وراءها، والطائرة داخل سحابة سوداء حبلى بمطر غزير، ودون وعي وضعت يدي في الحقيبة، وكنا نهوي عموديًّا من علوٍّ شاهق ونصطدم بالصخور الغريبة فإذا بورقة تقفز منها: نبذة عن حياتي محاطة بخط عريض أسود وفي الثانية التي رأيت فيها نعيي استشهدت.

حتماً ستقنعونني أنها خطيئة اقترفتها آلة التصوير في مكتب المجلس. أما أنا فما زلت عاتبة على الآلة وعليكم جميعاً، لأن حيرتي ما برحت تعاودني، وليس من يقنعني إذا كنت فعلاً هنا أو فعلاً هناك.

# لم يعد راشد في نيويورك

وصل رأساً من «أم الفحم» في فلسطين المحتلة إلى نيويورك فتحوّل الشاعر العملاق إلى طفل ضائع، أخافته المدينة وصرعته الضجّة وصدمَته مظاهر الغنى الفاحش وأبْكته مناظر الفقر المدقع، مدّ يده يستعين بزوجته «آن» الأميركية اليهودية والتي هجرت زوجها الإسرائيلي في إسرائيل لتخطّط خلاصها مع الشاعر العربي فوجدها قد التهت عنه في بناء مستقبلها كباحثة في علم النفس. لم يفهم لماذا أحضرته «آن» إلى بلادها الأصلية، أَلِيَضْمُرَ حجمُه؟ أَلِيَصْغُرَ بعينها هي؟ أَلِيَخْدِمَها؟ أم لِيَنْقَلِبَ الشاعرُ الرومنتيكيّ إلى تابعٍ مجهول؟ فهو لا يتكلم الإنكليزية وعندما يتكلم العربية يفضح نفسه كعربي تربّى في ظل الاحتلال الإسرائيلي. وكنا في ذلك الوقت نتخوّف من القادمين من الداخل ونشكّ في أمرهم.

لا أعلم كم من الأشهر بقيَ «راشد حسين» في منفاه في ولاية «نيوجرسي» لا يكتب شِعراً ولا يكلّم أحداً ولا يقرأ جريدة، بل ينتظر عودة «آن» إلى البيت مساءً وهو يحنّ ويحنّ إلى فلسطينه البعيدة.

وذات يوم خرج الطفل الكبير من بيته دون إذن وأخذ يفتّش عنا حتى وجدنا، ولم تمر ساعات إلا وكنّا قد تبنّيناه وضممناه إلى

صدورنا، بل وأخذنا نتبارى في كسب حبّه.

وبالمقابل، تحرك فيه كرم أهالي «أم الفحم» فأخذ يدعونا إلى العشاء في بيته أسبوعياً، ويتفنّن في صنع المأكولات العربية والبذخ في تقديم المشروبات الروحية. خلال تلك الفترة كان «راشد» في قمة السعادة، يتألق وينظم الشعر ويعطي الحب والدفء ويتقبلهما، كنّا ندعوه مرة مقابل عشر دعوات من قِبَله. إذ إنه كان يبغي تحويل بيته إلى بيت الشعب.

أما زوجته «آن» فكانت تجلس خلال تلك السهرات في زاوية من الغرفة لا تشارك في الضيافة، وقليلاً ما تشارك في الحديث، كنّا نخرج من عندهما ونحن نعلّق على كرمه وحسن استقباله وعلى بخلها ووقاحتها.

ثم بدأ «راشد» يعمل في مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في نيويورك، أقول يعمل وهو الذي لم تقيّده ساعات عمل ولا ربطته مواعيد. وحوالى الساعة الحادية عشرة صباحًا عندما يكون موظفو مكاتب نيويورك يمرّون في أكثر فترات النهار ازدحاماً بالعمل كان «راشد» يختار أن يكلّم أحدنا هاتفيًا:

ـ ماذا تفعلين؟

ـ يسأل «راشد».

ـ أحاول أن أكتب افتتاحية المجلة، كما أنتظر حضور المحرِّر الفنّي لانتقاء الغلاف والصور و. . .

ـ انزلي إلى المقهى لنأخذ كأساً معاً!

ـ ولكن. . .

ـ لكن ماذا؟ إني بانتظارك.

ـ اعقل يا «راشد»! يستحيل أن أترك مكتبي الآن.

ـ أنت حرة! ستجدينني في المقهى بانتظارك.

وعندما أهبط بعد ساعتين أو أكثر أجده يرشف كأس الفودكا الرابع هذا الصباح وهو غائب عن باقي الروّاد، يسجّل كلمات غير مقروءة على ورق أصفر. وكنت أقيس كمية الكحول التي رشفها من النظرة في عينيه. لم يكن «راشد» من هؤلاء الذين يحاسِبون على التأخّر أو يشتكون من الانتظار. كان يستقبل ضيفه المتأخر بكل لطف وتهذيب اللهم إلا إذا اختار الصديق أن يعاتبه على كثرة المشروب في هذا الوقت من النهار، عندها كان «راشد» يلجأ إلى الدفاع عن النفس بشنّ هجوم على أصدقائه جميعهم:

ما هي أهمية «راشد حسين» في كل الأحوال؟ لست إلا شاعراً متطفلاً، نسيني جمهوري في البلاد وها أنتم تنسونني وتتجاهلونني، لماذا تركت بلادي يا إلهي؟ ما الذي دهاني؟

ويلطم وجهه ويبكي حظه بدموع سخيّة. إلا أنه لم يكن من الصعب تهدئة «راشد» الطفل أو تعزيته، فبكلمتين لطيفتين يطيب خاطره ويعود إلى مزاحه واندفاعه في سرد الموضوع الذي يسيطر على تفكيره.

ما إن ينتهي الدوام في الساعة الخامسة والنصف إلا وتنقلب طاولة «راشد» في المقهى نفسه إلى ملتقى لنخبة من الشبان والشابات العرب.

يستمر «راشد» في رشف الفودكا والتدخين، كان «راشد» يحلم دوماً بالأراضي المحتلة وكأنه لم يتركها روحيًّا، فيسرد قصص ماضيه ويصف مدينته ويأتي على ذكر أهله وأصدقائه باستمرار، حتى أصبحت تلك المدينة ومعالمها وهؤلاء البشر وصفاتهم وكأنهم قسم من ذكرياتنا نحن المستمعين إليه.

ثم بدأنا نلاحظ إهمال «راشد» لأناقته المعهودة:

لحية نصف مرخيّة، قميص غير مكويٍّ، بنطلون وَسِخ ذيله، معطف شتوي تنقصه أزرار، كما أنه توقّف عن ذكر «آن» وهي التي كان يتفاخر بمنجزاتها في حقل علم النفس.

في إحدى جلساتنا الخاصة تشجّعت وسألْتُه عن «آن» فاعترف أنها تركت له الشقّة والتحقت بجامعةٍ في إحدى الولايات البعيدة، وكان يدافع عن قرارها هذا بعصبية لا مبرّر لها، إذ إني لم أنتقدها كما أني لم أعلّق على تصرُّفها.

إن لِـ «آن» حرية متابعة دراساتها العلمية كما تشاء أليس كذلك؟ ولماذا نتوقّع منها أن تعلّق مصيرها بمصير إنسان فاشل ضائع لا وطن له ولا هويّة؟!

أغضبني تبريره لتصرّف امرأته الأنانية، خاصةً وأنه أقنع نفسه بنجاحها وقارنه بضياعه وفشله مما شكل لديه عقدة نقص واضحة.

ولكنك يا «راشد» لست فاشلاً ولا ضائعاً بل أنت أكثر شعراء المقاومة الفلسطينية شهرةً وأجرأهم قولاً وعملاً، فلماذا

هذه القسوة على النفس؟ ألم تُتَرْجَم أشعارك إلى العشرات من لغات العالم؟ ألست راضياً عما تكتبه من شعر؟

وهنا تلمع عينا «راشد» ويعود الاطمئنان إلى الطفل الكبير فيسرع ليريني شعره الجديد ويسألني عن إمكانية ترجمته، ما زلت لليوم أسمع صوته وهو يردّد:

«دقت الساعة في القدس الحقيقة!»
بكى يومها علنياً وأبكاني معه.

واستمرت حالة شاعرنا في التدهور، فبدلاً من النزول إلى المقهى لرشف المشروب أخذ يصطحب معه زجاجة فودكا إلى مكتبه فيشرب وهو يترجم مقالاتٍ من العبرية إلى العربية. وتهامس الأصدقاء أن المرأة التي اصطحبته معها إلى نيويورك وأغرته بترْك كلٍّ من يحبّ وراءه قد سحبت عنه الحماية وتركَتْه وحيداً في مدينة لا ترحم اليتيم ولا تشفق على الوحدة.

تغيّبْت عن «نيويورك» وعن «راشد» مدة سنتين وما إن عدت إلى المدينة حتى بدأت أبحث عنه، وعلمت أنه اعتاد أن يتوارى عن الأنظار لفترات طويلة. وأخيراً أتى لزيارتي في المكتب فكاد يبكيني منظره: عيناه متورّمتان، ووجهه منتفخ، وظهره منحنٍ بعض الشيء.

ـ هل باستطاعتك إعارتي مئتي دولار؟
سأل منذ الدقائق الأولى.
ـ هكذا مرة واحدة؟

ـ أرجوكِ أن لا تردّي طلبي فأنا في أمسِّ الحاجة إليها وسأعيدها في أقرب فرصة ممكنة.

سامحَني الله! تأكّدت أن «راشد» سيستخدم تلك النقود لشراء المزيد من المشروبات الروحية، فتردّدت قليلاً. وكم أخجل اليوم عند تذكُّري تردُّدي الذي لا بدّ وأنه قرأه في عيوني، ولكن كان من الصعب أن يرفض صديق طلباً لـ «راشد». فأسرعْت وناولْته المبلغ، فأخذه واعتذر واختفى بسرعة.

ولم تمضِ ساعات إلا وأنا أتلقّى أضخم باقة زهور رأيتها في حياتي، باقة يحملها شخصان من أجل إيصالها إلى مكتبي، وجدت عليها بطاقة صغيرة موجَّهة إليّ:

«مع شكري الأبدي، راشد».

ماذا فعلت يا «راشد»؟ استدنت مئتي دولار كي تصرفها على باقة زهر؟ كيف أعاتب «راشد» على شاعريّته وعلى رقّته هذه، بل وكيف أشكره وأعتذر له؟

ومع الزمن اعتدنا على اختفاء «راشد» عن أنظارنا، وكنّا نفترض أنه يقبع لأيام في شقّته الصغيرة في أحد أحياء «نيويورك» الفقيرة.

وفي أحد الأيام تلقَّيت هاتفاً من «راشد» من ولاية «فلوريدا» حيث كان يعالَج في أحد المصحات الخاصة بالمدمنين. وإن «راشد» الذي كلّمني يومها كان غاضباً عَليّ وعلى الدنيا بأجمعها، ولم أدرك وقتها أن تلك ستكون مكالمتنا الأخيرة.

ـ كيف تتآمرين معهم؟

سأل بمرارة وحزن.

ـ كيف تقبلين أن أُزجّ في مصحٍّ للمدمنين؟ ألا تدركين أن هذا هو الموت بعينه؟ لماذا لا تتركوني لشأني.

ـ هل تخجلون من شكلي يا ترى؟

ـ راشد! إني أحبك وأحترمك وأشتاق إليك.

ـ هم يكذبون وأنت تكذبين أيضاً؟ إني أعرف أنكم تتهرّبون منّي.

ـ راشد! عزيزي! كن عاقلاً، ستخرج من المصحّ وأنت في أحسن حال وتعود إلى عملك وإلى كتابة الشعر.

ـ أنتِ كغيرك، لا يهمُّك أمري! وأقفل السماعة.

ثلاثة أشهر بعد تلك المكالمة المشؤومة شبّ حريق في شقّة شاعر المقاومة الفلسطينية في نيويورك، فاحترق «راشد حسين»، وليومنا هذا أتساءل:

هل أحرق نفسه؟ هل أحرقوه؟ أم هل ساهمْنا نحن في حرق ثروة قومية لا تعوَّض؟

# جعجعة بلا طحن

ابتدأت أصداء هتافاتهم تصل إلى طابقنا السابع والثلاثين الواقع في منتصف ناطحة السحاب النيويوركية مختلطة بضجّة المدينة الصاخبة، فلم نميّزها عن غيرها من الأصوات البشرية والآليّة المضخّمة التي تشكّل هدير نيويورك ليلاً نهاراً ولم نُعِرْها اهتمامنا. إلا أن تناسق الأصوات الناتج عن تزايد أعداد المتظاهرين أخذ يطغى شيئاً فشيئاً على ضجّة المدينة. ومع مرور الوقت استطعنا أن نميّز عبارة (الجامعة العربية) تتكرر فقفزنا إلى النوافذ نفتحها ونتدلى منها، فإذا بمظاهرة هائلة تتوضّح معالمُها تحتنا بسبعة وثلاثين طابقاً: مئات من اليهود الأميركيّين يهتفون بصوت واحد:

(قاطعوا الجامعة العربية! قاطعوا البضائع العربية!)

على الإنسان العربي في الولايات المتحدة أن يستعدّ لمجابهة العداء اليهودي ويعتبره شرًّا لا بدّ منه. إلا أن ألم الصدمة لا يخفّ مع التجربة، بل إن عند كل هجوم جديد يشعر الواحد منا بالغبن والأسى الشديدين. (ضربني وبكى سبقني واشتكى): تلك هي حكايتنا مع الصهاينة. يشنّون في بلادنا اعتداءات همجية ويرسلون طائراتهم لتقصف أطفالنا ونساءنا وشيوخنا بقنابلها الحارقة، يزجّون بشبابنا في السجون أو ينفونهم إلى الخارج، يحتلون الأراضي، ينسفون البيوت فوق رؤوس الأهالي، يرتكبون

الجرائم، ثم يلاحقوننا في الولايات المتحدة محاولين إخافتنا وإسكاتنا فيرهبون محاضرينا ويرموننا بالبيض العفن، يحطّمون زجاج سيّاراتنا، يقلقون راحتنا ويوشون بنا إلى الأمن الأميركي. وبعد كل ذلك يتجمهرون أمام الشعب الأميركي ليكيلوا لنا التهم بقصد إبعاده قدر الإمكان عن التعاطف معنا أو البدء في تفهُّم قضايانا. وبالرغم من أن القانون الأميركي يمنح الجميع بالتساوي فرصة التعبير عن الرأي وحرية إبدائه إلا أنه مقابل كل كلمة عربية تجد طريقها إلى آذان الجمهور الأميركي تتدافع آلاف الكلمات الصهيونية لإسكات أصواتنا والتشويش عليها.

ولنعترف بأن «نيويورك» هي عاصمتهم قبل «تل أبيب» فهم يعرفون دروبها ويتحكمون بآرائها ويسيطرون على عقلها وقلبها ومالها يشترونها ويبيعونها كما يشتهون، فإن أبدوا رأياً احتلّ أهمّ صفحة من الجريدة أو بُثَّ في برنامج شهير من برامج التلفزيون أو أذيع على مدى ساعات طوال في إذاعة رنّانة.

وإن نظّموا مظاهرة حشدوا لها طاقاتهم البشرية من جميع أنحاء المدينة، فيبدون وكأنهم بحر هائج بالمقارنة مع مظاهراتنا العربية التي نجرّ الأصدقاء إليها جرًّا، حيث تبدو أعدادنا هزيلة وهتافاتنا ضعيفة مخنوقة، خاصة في مدينة تعوَّدَت أن تعير انتباهاً لِما هو ضخم وفاجر وتتجاهل ما سواه.

أطللنا من نوافذنا العالية ونحن نحصي أعدادهم ونعلّق على تنظيمهم الواضح من يافطاتهم وشعاراتهم ونحن نستشيط غيظاً وألماً. ماذا نفعل؟ نرشّهم بالماء من علوّنا؟ نرمي عليهم زبالتنا؟ نبصق؟ نبوّل؟ ماذا؟ كيف ننتقم منهم؟ كيف نُخرسهم؟

وبعد استعراض جميع تلك الإمكانيات اجتمع رأينا على مواجهتهم ليس بالأعداد ولكن بالمناشير التي قرّرنا توزيعها على المارّة. وفي تلك اللحظة هجمت حشود الصحافة الأميركية فتابعناهم من نوافذنا يتوافدون بسياراتهم الضخمة: التلفزيون ينصب كاميراته، والإذاعة تهيّء ميكرفوناتها، والصحافة تدور هنا وهناك مسلّحة بأقلام ودفاتر لتدوين الأقوال ووصف المنظر.

وفجأة تبلورت لدينا خطة ذكية، ننتقي متكلماً من بيننا ثم نهبط إلى الشارع ونقف بحيث نجذب الأنظار فنصطاد الصحافة التي أتوا بها لتغطية خبر مظاهرتهم. وبهذا نكون قد سرقنا منهم بعض الأضواء. فالصحافة الأميركية بطبيعتها تبحث عن كل جديد وغريب، فلماذا لا نحاربهم بهذه الطريقة فنكسب دقائق تلفزيونية أو إذاعية دون أدنى عذاب؟

وقع الخيار عليّ للإجابة على أسئلة الصحفيين في حالة نجاحنا بجذبهم فاستعدّيت نفسيًّا وفكريًّا وحتى في مظهري، فأصلحنا ما يمكن إصلاحه وذلك بترتيب الثياب والماكياج، ثم هبطنا إلى ساحة المعركة. احتللت مع رفيقاتي مركزاً ممتازاً ولم يطل انتظارنا. اقترب منا أول صحفي ثرثار:

- أأنتم من قادة المتظاهرين؟

- نحن؟ قادة المتظاهرين؟ لا! نحن المقصودون بالمظاهرة.

- وماذا يعني ذلك؟

- نحن عرب من الجامعة العربية هبطنا من مكتبنا لنكتشف لماذا يطالبكم يهود أميركا بمقاطعتنا وفي عِدادنا دول تَؤمّن بأموالها

آلاف الوظائف للعاطلين عن العمل لديكم.

- عظيم! عظيم! ابقوا مكانكم، لا تتحركوا! سأستدعي رفاقي!

ولم يغب إلا دقائق قليلة، عاد بعدها بصحبة فريق تلفزيوني كامل. أما أعداؤنا الذين سجّلوا الحدث فلقد ابتدأوا يستشيطون غضباً وحقداً.

لم أعد أذكر أسئلتهم ولا أجوبتي، ولكن كان من الواضح أني أحسنت الإجابة. فهمت ذلك من إطراء رفاقي، وحتى من المذيع الذي تكرم وهنّأنا بعد اللقاء.

وما إن انتهت المهمة حتى اتجهنا ركضاً نحو المصعد خوفاً من تعدّي اليهود علينا، وكنّا قد رأيناهم وهم يحيطون بالفريق التلفزيوني ويتجادلون معه بوقاحة لا يتقنها بشر كما أتقنها يهود نيويورك.

ومساءً في شقّتي الصغيرة أخذت أنتظر عودة زوجي من عمله وأنا أراقب الساعة خوفاً من أن تبدأ الأخبار المحلّية ويُذاع النبأ وهو خارج الشقة. أردت كعادتي أن يشاركني فرحتي بالنجاح الباهر ويحتفل معي في كيفية استغلال الفرص ومجابهة العدو. ووصل قبل موعد الأخبار بدقائق مما أتاح لنا الوقت لأن نجلس أمام الشاشة الصغيرة وفي أيدينا فنجانا شاي.

وابتدأت الأخبار المحلية خبراً تلو الخبر حتى وصل المذيع إلى خبرٌ قيام مظاهرة يهودية ضخمة أمام مكتب الجامعة العربية في وسط المدينة. ووصف المظاهرة وآلاف المتظاهرين بينما

كانت الكاميرات تبث الصور مركِّزة على لافتاتهم المعادِية للعرب، ثم أسمعونا هتافاتهم الحماسية. تلا ذلك مقابلة مع أحد قادة المظاهرة الذي فسر بكلّ وضوح سبب إقامة المظاهرة مؤكِّداً على ضرورة مقاطعة الدول العربية التي تتحكم بالمؤشر المعيشي الأميركي كما تريد، والتي حسب ادعائه تهدد العالم بأجمعه بأموالها وبنفطها.

ظهرت على الشاشة لقطات لامرأة قبيحة مشوَّهة تتكلم بشكل هستيري وتتفوه بكلمات لا معنى لها ولا صلة بينها، هذه المخلوقة كانت أنا. هكذا عرّفني المذيع قبل العودة إلى المظاهرة المنظَّمة وإنهاء الخبر.

جلست أمام الشاشة مصدومة مشلولة مخجولة غير قادرة على النظر إلى زوجي خوفاً من رؤية الفضيحة في عينيه. شعرت بيده تربّت على كتفي مهدِّئة مُطَمْئِنة، فصحت:

ـ كيف جعلوني قبيحة بهذا الشكل؟ ماذا فعلوا بأقوالي وبشكلي؟ كيف يشوّهونني بهذه الطريقة؟ هذا ليس من العدل ـ لا والله!

ـ وكيف تنتظرين منهم أن لا يشوّهوك أنت؟ تذكّري فقط كيف يشوّهون الحق العربي واستمِدّي عزاءك من هنا.

# خطف عقلي

كان مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في نيويورك كما هي عادته أثناء الأزمات القوميّة يعجّ بالمتبرِّعين وأغلبهم متفرِّج وليس بمساعد. كنا نهارَها ما زِلنا نجفّف الدمع على القائد العربي العظيم ونحن ندبر حملةً من نيويورك لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من ماء الوجه في أحلك أيام شهر أيلول عام ١٩٧٠ . كان مدير المكتب الذي كنا نلقّبه «بالخال» يحارب في أروقة الأمم المتحدة داخل المبنى الزجاجي العملاق، وكنا ـ أنا ورفاقي ـ قد جنّدنا أنفسنا لإدارة المكتب الإعلامي الفلسطيني أثناء غيابه.

ومن ضمن الاقتراحات التي طُرحت، فكرة استدعاء الشبان والشابات العرب الذين يدرسون الطب أو التمريض في الولايات المتحدة للتبرع بالخدمة في الوطن لحاجته الفعلية إليهم أو لاختبار شعورهم القومي، الله أعلم. وأدهشَنا تجاوبهم السريع كما أدهشنا تواجدُهم الأسرع في نيويورك ومعظمهم حضر على نفقته الخاصة قاطعاً دراسته مضحّياً بمستقبله.

كم تحسّرت يومها كما أتحسّر دوماً أثناء الأزمات المستمرّة التي تواجه قومي العرب لعدم دراستي مهنة الطب أو التمريض، وكم حسدت تلك الوجوه الفتية الجدّيّة التي كانت تستعدّ للخدمة بحماس فائق وفي ظروف غامضة وخطرة للغاية. كنت أهرب إلى

مكتبي مُحْرَجَة كلما احتدَّت مناقشة طبّية بين هؤلاء الشباب لأقارن بين تفاهة عملي الإعلامي وجدّية مهنتهم الإنسانية. ولا أذكر إلا وقد أرسلت من يجهّز لي حقيبة سفر صغيرة ناويةً بيني وبين نفسي أن أنطلق مع قافلة الأطباء حين تأتي ساعة الرحيل، ولم تأت.

ولا يسعني هنا إلا أن أذكر درساً تلقَّيْتُه من طبيبة شابّة أتت من إحدى الولايات البعيدة. كانت في نظري آيةً في الجمال: سمراء صغيرة الحجم متناسقة الأعضاء سوداء الشعر والعينين ـ بدويّة عربيّة من الصحراء، هكذا تخيّلْتُها. جلست الصبيّة الدكتورة على الأرض وإلى جانبها لفّة صغيرة احتوت كلَّ متاعها، ولاحظت أنها ترفض الاشتراك في أحاديث تأبين الفقيد العظيم، وبين الحين والآخر كان يصلني صوتها مطالبةً بتحديد موعد السفر.

وصل آخر الأطباء الشباب ولم يعد علينا إلا تدبير أمر مبيتهم في فندق نيويوركي، فقد تحدّد موعد السفر في الغد والوقت متأخر. ولم أكد ألفظ كلمة «فندق» حتى تحدَّتني الدكتورة الجميلة بقولها:

ـ ومن سيدفع أجرة الفندق؟

فأجبتها دون تردُّد: المكتب طبعاً فلقد كلَّفَنا «الخال» بذلك.

قاطعتني بقولها: ولماذا الفندق؟ أليس لديكم شقق أنتم عرب نيويورك؟ أليس بإمكانكم أن ترموا بعشرة أطباء على

مقاعدكم أو حتى على الأرض في غرف جلوسكم أو في حمّاماتكم أو مطابخكم؟ أليس من المنطق أن نأخذ معنا بدل مبيتنا في الفندق لننفقها على أنفسنا في مناطق يمكن أن ننام فيها في العراء لا بل وأن نجوع فيها.

لقّنتني درساً! قفزت من مكاني لأقبّلها وأشكرها.

وما إن توزّع الأطبّاء على البيوت حتى بدأت الهواتف ترنّ في مكتب المنظمة. وفي وسط هذه المعمعة بالذات استُدعيت إلى الهاتف: المحامي الأميركي الأسود «بوب ڤان لپروب» يرغب في الكلام معك ويبدو الأمر مستعجلاً.

رفعت السماعة فإذا «ببوب» يواجهني بمشكلة إنسانية من نوع جديد ومحيّر:

إنه ـ أي «بوب» ـ يعمل كمحام متدرّج في مكتب محاماة ذي شهرة واسعة جدًّا في نيويورك، وكعادة هذه المكاتب فهي تحمل اسمين أو ثلاثة لمحامين مرموقين. وأحدهم في هذه الحالة هو المحامي اليهودي المشهور «مانش». أعلمني «بوب» أن «مانش» هذا قد علم لتوّه أن ابنته «باربرا» وعمرها ستة عشر عاماً كانت عائدة من إجازة في إسرائيل فإذا بطائرتها تُختطَف إلى «عمّان». إذاً الفتاة مختطَفة الآن وهي وحيدة والديْها اللذين يكادان يفقدان صوابهما.

ـ أَفَهِمْتِ الوضعَ يا عزيزتي «رندة»؟

ـ نعم، فهمت.

ـ إن الأب يتقدّم الآن بعرض مقابل الإفراج عن ابنته الوحيدة فهو مستعدّ لأن يعلن تأييده الكامل لمطالب الشعب الفلسطيني، وأن يتخلى علناً عن مساعداته المادّية والمعنوية لإسرائيل، وهنا أحبّ أن أذكّرك أن زوجته ـ أي «السيدة مانش» ـ هي حاليًّا رئيسة جمعية «هداسا» النسائية في ضاحية من أغنى ضواحي نيويورك، وهي بدورها مستعدّة للتخلي عن مركزها، كل ذلك مقابل الإفراج عن ابنتهما ـ أَفَهِمْتِ؟

ـ فهمت يا عزيزي «بوب»! ولكن كيف تتوقّع منّي أن أتَّصِل بجهات لا أعرفها ولا أعرف غايتها وهو كما تعلم من المنشقّين عن المنظمة.

قاطعني بقوله ـ صِليني بأحدهم ولو بشكل شخصيّ وغير رسميّ وأنا على استعداد للسفر مع الأب إلى «عمّان» لاستلام الفتاة. ثم لا بدّ أن أذكر أن السيد «مانش» من أصدقاء أصدقائكم المعروفين في الحركة السوداء، ولا شك لدي أن أية مداخلات إيجابية من طرفكم ستؤثر على علاقاتكم بالسود من جهة، وباليهود الأميركان المحايِدِين من جهة أخرى.

لم أعده بشيء. فكيف أَعِد وأنا لا أدري كيف أعالج موضوعاً معقّداً كهذا؟ وجلست ورفاقي نفكّر بالكسب الدّعائي والمعنوي الممكن تحقيقه في حال نجاحنا بالإفراج عن ابنة «مانش»، واستقرّ رأينا على أن نتكلم مع أصدقائنا في لبنان للتدخل لدى الجهة الخاطِفة، فهم أقرب إليهم وعلى عِلْم بما يجري في المنطقة. وأعلمت «بوب» بمساعينا وانتظرنا الإجابة

على طلبنا. وأدهشني أن أتى الجواب بسرعة: ليتفضّل المستر «مانش» مع رفيقه المحامي الأسود لاستلام «باربرا» من «عمّان».

وتلقّى «بوب» الخبر بامتنان كبير إلا أنه عاد وأعلمني أن السلطات الأميركيّة قد نصحت السيد «مانش» ألّا يذهب إلى العالمّ العربي الآن فالأوضاع مشتعِلة والفلسطينيّون سيأكلونه «دون ملحٍ» لكونه يهوديًّا.

ضحكت وأجبت «بوب».

ـ لا يا صديقي. اطمئن لن يأكل الفلسطينيّون السيد «مانش». ولكن ليس من أحد يضمن عدم تأزُّم الحالة فعليكما الاحتراس. أمّا جماعتنا فمتى وعدوا وفوا.

سافر المحامي «مانش» برفقة «بوب» إلى قبرص حيث أُنْذِرا مرَّةً أخرى بعدم الاقتراب من الفلسطينيّين، فلم يكترثا بالإنذارات بل تابعا سفرهما إلى عمّان. حوصر المحامي اليهودي المشهور مع زميله في أحد فنادق «عمّان» وشاهدا مخيّمات اللاجئين تُقصف لأيام ثلاثة بلياليها فحضرا مرغَمَيْن فصلاً من فصول مأساة الشعب الفلسطيني وبُطولاته، كما شَهِدا أن الفلسطيني لا ينكث عهده. فلقد سُلِّمت «باربرا» في الفندق تحت وابلٍ من الرصاص سليمةً معافاة والدموع في عينيها لتركها أصدقاء عاشت مأساتهم ولو لأيام قليلة. ولم تنته القصة عندها.

مرت أيام وعادت الشابة مع أبيها وصديقه إلى وطنها. ولم يكد «بوب» يطأ أرض نيويورك حتى أتاني راكضاً يصف لي

المغامرة ويشكرني على المساعدة.

استمعت إلى مغامرته بالتفصيل وعندما أتى إلى النهاية السعيدة سألت:

ـ والآن؟.

ـ الآن لن تصدّقيني إن قلت لك إن الصبيّة تتحرق شوقاً للتعرف عليك والاستماع منك إلى المزيد عن قضية الشعب الفلسطيني. هل ترغبين في استقبالها؟

ـ لم لا؟ إني أدعوها مع أبيها، وأنت طبعاً، إلى الغداء معي غداً في «مطعم الأمم المتحدة».

في الواحدة ظهراً استقبلت الثلاثة عند مدخل «الأمم المتحدة». فوجئت بصبيّة لطيفة خجولة تبدو عليها أمارات الذكاء المبكر والحساسية المرهفة. واستلم الوالد ـ المحامي الشهير ـ الحديث مردّداً ملاحظات «بوب» مسجِّلاً انطباعاته الخاصّة التي تكوّنت لديه وهو في شرفة من شرفات فندق في «عمّان» حيث شاهد بأمّ عينه النساء والأطفال الفلسطينيين يُطارَدون ويحصدون. كانت الصغيرة تستمع ولم تشارك في الحديث ولكنها كانت تنقل نظرها من واحد إلى آخر وكأنها تريد استيعاب كل حرف من كل كلمة.

انتهى الغداء واعتذر الأب بداعي العمل واستعدّ للانصراف مع زميله «بوب».

التفتّ إلى الصبيّة أسألها إذا كانت ترغب في زيارة «الأمم

المتحدة» برفقتي فقبلَت بحماس بعد أن اتفقنا على أن أرافقها إلى المحطة لتستقلّ القطار إلى ضاحيتها المقتصرة على أثرياء «نيويورك».

لحسن الحظ جلست مع الصبيّة إلى اللجنة الثالثة حيث كان يجري نقاش حول إدراج كلمة «فلسطين» إلى جانب «روديسيا» و «جنوب أفريقيا» في صياغة نص قرار بشأن التفرقة العنصرية. هذا النقاش الذي نتج عنه قرار أدان الصهيونية واتهمها بالعنصرية. استمعنا إلى المناقشة باهتمام خاصّةً وأن زوجي كان يمثّل الجمهورية العربية السورية في هذه اللجنة بالذات ولم ننتبه لمرور الزمن حتى اقترب موعد قطار «باربرا».

أسرعت مع الفتاة نحو قاعة الاستقبال ونزلنا الدرج الكهربائي ونحن نعلّق على وضع الفلسطينيين وعلى ضرورة إيجاد حلّ عاجل وعادل ودائم لقضيتهم، إذا بي أجدنا وجهاً لوجه مع موظف كبير في الوفد «الأميركي» في «الأمم المتحدة» يدعى «أوكلي» ـ وبصحبته المندوب الأميركي الجديد في «الأمم المتحدة».

اقترب «بوب أوكلي» منا مرحّباً ثم التفت إلى رئيسه يقول: «يسعدني أن أعرِّفك إلى السيدة فلانة التي ذكرتها لك مراراً. ثم استدار إليّ قائلاً: «رندة، يسعدني أن أعرّفك إلى السفير الأميركي الجديد». وهنا التفتّ بدوري إلى الصبيّة التي كانت تقف إلى جانبي وتنظر إلى الأرض خجلاً وقلت:

ـ وأنا يسرّني أن أعرّفكما إلى الآنسة «باربرا مانش». إن

«باربرا» كما تعلمان كانت إحدى المختطَفات في «عمّان». (وكان الاسم قد تردّد مراراً في الجرائد الأميركية). انشده الاثنان ثم لم أسمع إلا السفير الأميركي وهو يستدير نحو الفتاة قائلاً:

ـ «أتعلمين أن «الولايات المتحدة» كادت تشهر الحرب من أجل الإفراج عنكم أنتم المختطفين؟» ثم أكمل وهو ينظر إليّ: «أرجو ألّا تكون السيدة «رندة» تختطفك عقليًّا بعد أن اختطفك الفلسطينيون جسديًّا».

وإذا بالفتاة الخجولة ترفع عينيها نحوه قائلة بتحدٍّ:

ـ «بالعكس. لقد تعلّمت الكثير من الفلسطينيين خلال بضعة أيام لم يكن خلالها من داعٍ للحرب. فلقد قضيت بينهم أجمل أيام حياتي كما أنهم عاملونا جميعاً ألطف معاملة».

تأبّطت ذراع الصبية وسرت بها إلى الهواء النقيّ خارج العمارة الزجاجية. ولم يكن سفير الولايات المتحدة وممثلها في «الأمم المتحدة» حينذاك إلا «جورج بوش» رئيس الولايات المتحدة حاليًّا.

# لعيون القضية

أتت تلهث من بعيد فالممرّ بين مقعدها الأمامي وغرفتي الداخلية طويل والوقت ظهراً «ونيويورك» في أحرّ أيام صيفها الخانق:

ـ مدام فتّال، هناك سيدة تريد مقابلتك حالاً.

كنت ومساعِدتي الأميركية الظريفة الشكل الخفيفة الظّلّ نُعِدّ سندويشات الغداء وقد أقفلنا باب المكتب ورفعنا «الشكليّات»: فالأرجل على الطاولات دون أحذية، والمشروب بارد، والقهوة ساخنة، والمأكولات الصحِّيّة مصفوفة أمامنا، وكلُّها تشكِّل مكافأةً لصباح حافل بالمقابلات والقرارات.

كنت يومها أرتدي أكثر ثيابي شياكةً وأنوثة: طقماً مؤلَّفاً من فستان قصير فوق بنطلون واسع، والاثنان من قماش «الجورسيه» المتعدِّد الألوان.

انتصبت واقفةً احتجاجاً على ما اعتبرته اعتداءً على فترة راحة قصيرة:

ـ قولي لها إن مديرة المكتب لا تستقبل الزوّار دون موعد سابق.

ولكنها عادت بعد دقائق تقول:

إن السيّدة تصرّ على المقابلة وتقول إن الموضوع مستعجل للغاية.

ـ سيدة.. سيدة.. سيدة... ما لي ولهذه السيدة؟.

لقد علّمتني نيويورك بعد استلام وظيفة مديرة مكتب الإعلام للجامعة العربية فيها أن ليس للمرأة قيمة كبيرة في المجتمع الأميركي، لذا اعتدت على مقابلة الرجال في مجال عملي. فماذا تريد هذه المرأة مني؟ لا بد أنها سكرتيرة أحدهم، أمري لله.

ارتديت حذائي وبحثت عن المرآة في حقيبة يدي لألقي نظرة أخيرة على وجهي، فلقد عوّدت نفسي ألّا أقابل البشر إلا وأنا في أحسن الحالات شكلاً. نظرت إليّ زميلتي الأميركية مبتسمة ففهمت المغزى وبادلتها الابتسام، إذ إنها لدقائق فقط كانت منهمكة في تحليلي وهي تقول: «أرجوك عدم إساءة فهمي، ولكن ألا تلاحظين أنك تستخدمين الإقناع الأنثويّ في عرض قضيّتك وعند الدفاع عنها»؟ وضحكَتْ طويلاً وهي مصرّةً على هذا الاتهام. أسهبَت الصبيّة في تحليل شخصيتي مؤكّدةً أني في جميع مقابلاتي الرسميّة أقوم باستخدام الإقناع الأنثوي. استرخصت وصفها هذا وقلت محتدّة:

ـ ألا تضعينني بوصفك هذا في مصافّ المبتذلات؟

فبدا الاستغراب على وجهها ونفت بقوّة:

ـ أتَرَين؟ لقد أسأتِ فهمي، أعني أنك مع كل قناعتك بعدالة قضيّتك ومع كل حججك القويّة وإيمانك العميق وحماسك القومي فأنت لا تنسين ولو لدقيقة واحدة أنك أنثى.

ـ ولماذا تريدنني أن أفعل ذلك؟ أتنتظرين مني أن أنسى أنوثتي؟

ـ أرأيتِ كيف أسأتِ فهمي؟ أنا لا أريدك أن تنسيها بل إني أُعلّق فقط بأنك أكثر إقناعاً عندما تستعملين ما أسميتُه «بالإقناع الأنثوي».

تذكّرتُ حديثَنا فابتسمْتُ وقد وجدت نفسي وبدون تفكير أحدّق بالمرآة لأتأكّد من شكلي قبل مقابلة سيدة مجهولة لا بد أنها سكرتيرة أحدهم كما سبق وقلت.

مشيتُ متنغِّصة متثائبة ولكن الشعور بالواجب ومعه النشاط المستمد من الداخل عاوداني للحال ودفعاني لأن أستعيد قوّتي. ألست إعلامية مسؤولة؟ ألم يقدِّمني رئيسي منذ أقل من شهر إلى ممثِّلي الصحافة الأميركية كمديرة مكتبه في نيويورك؟

أسرعت خطاي متأكِّدةً من أني سأعود بسرعة لسندويشتي الشهية ومشروبي البارد وقهوتي الساخنة وكذلك لمتابعة الحديث الشيّق. فكل حديث يدور حول النفس مشوّق.

دخلت غرفة الاستقبال فإذا بي أجدني أمام امرأة ترتدي معطف مطر رفعت ياقته إلى حدود وجهها، تُرى ماذا جرى لطقس نيويورك؟. هل أمطرت الدنيا من تحت طابقنا السابع والثلاثين؟.

كانت تضع على عينيها نظارتين سوداوين تخفيان شكلهما وتعابيرهما. وكعادتي تضايقت من تبادل النظر مع زجاج أسود قاتم.

ـ نعم يا سيدتي.. كيف لي أن أخدمك؟.

لفظْتها بلكنة إنكليزية خالصة تعاودني دون جهد أو تصنُّع كلما وجدت نفسي أحاور أميركيًّا أو أميركية اقتناعاً مني بأن الأميركيين يحترمون اللهجة الإنكليزية التي صُنعت في بريطانيا خاصَّة إن أتت من غير بريطاني.

تردَّدَت بالإجابة وهي تتفحَّصني وكأنها تُقيِّم بضاعة أو تنقدها.. وكأن صوتي للمرة الثانية أفاقها من تأملاتها أو كأنها جفلت عند سماعي أردد:

أنت ترغبين بمقابلتي أليس كذلك؟

ـ جئت أستشيرك بشأن المرأة العربية، فإني أعدّ مقالاً عنها، وقيل لي إنك خبيرة بالموضوع.

ابتسَمْتُ لتسميتي خبيرة. وقلت في نفسي: خبيرة؟ لا لست خبيرة بشيء ولا حتى بقضيتي التي تفرَّغْت لها تفرُّغاً كاملاً. وكم كنت أحاسب نفسي على النقص في خبرتي وأعِدُها بأني يوماً ما سأستحقّ لقب خبيرة. ولكن لِمَ التواضع؟ ألا يجعل المركز من المرء خبيراً إعلاميًّا؟ ثم إن مركزي كمديرة مكتب الإعلام في «نيويورك» نصّبني خبيرة بكل أمر عربي من اللباس الوطني في «فاس» إلى فن العمارة في «صنعاء» إلى تاريخ استقلال «الجزائر»

إلى عدد قتلى مجزرة «دير ياسين». . . . فلأسايرها إذاً وأجيب طلبها.

ـ حسناً! على ماذا تركِّزين في دراستك؟ هل هي تاريخية أم اقتصادية أم علميّة أم أنك ـ

قاطَعَتْني ولا تزال النظرة السوداء تتفحَّصني:

ـ إني مهتمّة بكل شيء، كل ما يخصّ المرأة العربية.

قالَتْها بغصَّة أدهشَتْني وسكتت، ثم عادت ونطَقت وكانت تلفظ كلماتها ببطء وكأنها تنتقي كل كلمة على حدة:

ـ أخبريني عن نفسك ـ يقولون إن المرأة العربية ساحرة، وإنها تُلمّ بأسرار الأنوثة ـ ويقولون إنه لا مثيل لها بين نساء العالَم.

احترت في أمرها: هل آخذ ما قالته مأخذ المديح أم مأخذ الذم؟ ماذا عنَت بـ «السحر» أو «أسرار الأنوثة»؟ هل أنا بحضرة مراسلة مجلة جنس أم أنها تمازحني أو تستفزّني؟ هل هي امرأة موزونة أم أنها إحدى مجانين «نيويورك» ـ وما أكثرهم؟ هل أضيع وقتي مع امرأة سخيفة بينما تبرد قهوتي الساخنة ويسخن مشروبي البارد وأفقد معها رغبتي لسندويشتي الشهيّة؟ قررْتُ وبسرعة أنها قد وجَّهت إهانةً لبنات جنسي العربيات، فلو كانت فعلاً قد طرحت سؤالاً عن القضية الفلسطينية لكنت استرسلت معها بالكلام ولَكُنْتُ شعرتُ بأنني أحقِّق ما وعدت به نفسي من أني سأجعل من هذا المكتب الإعلامي العربي مكتباً سياسيًا شعبيًّا. فما لي ولهذه المرأة التي تريد أن تنزل من علوّ القضية إلى

المستوى الصالوني البورجوازي؟ أجبْتُ بحدَّة:

ـ أعتقد يا سيدتي أنك متأثِّرة بأفلام «هوليوود»، فقبل البحث عن المرأة العربية وأسرارها عليك أن تتوسّعي في معلوماتك قليلاً حول الإنسان العربي ماضياً وحاضراً، فإنّ صورته لديكم مشوّهة بما فيه الكفاية.. أما صورة الإنسانة العربية فهي أشدّ تشويهاً وقبحاً، وهذا واضح من نمط سؤالك...

قاطعَتْني وقد رفعت عن عينيها النظارتين السوداوين، هل قرأَت على وجهي استنكاري لهما؟. نظرت إليها فإذا بعينين محمرَّتين متورِّمتين من الدموع تواجهانني بكراهية. تمسَّكْتُ بمقعدي الذي انقلب فجأة إلى كرسيّ اتهام. وفي اللحظة التي فتحت فيها فمي لأسألها عن هويتها الحقيقية فاجأتني بقولها:

ـ لا بد أنك قد فهمتِ قصدي ـ ولا بد أنك قد اكتشفت هويتي، فلقد سبَّبْتِ لي الكفاية من التعاسة.

ـ أنا؟ تعاسة؟ ما لي ولك؟.

ـ أنا زوجة فلان ـ وذكرَت هنا اسم مخرج تلفزيوني أميركي ـ كنت قد تحاورت معه مرَّتَيْن بشأن إنتاج فيلم عن «معبد أبو سنبل»، وفشل المشروع وانقطعت الاتصالات وعُدْتُ متفرِّغةً لقضيتي الأولى ـ قضية فلسطين.

ـ أنتِ إذاً زوجة فلان ـ تشرَّفْتُ بمعرفتك ـ وما هي علاقتي بمشكلتك؟.

قفزَت من مقعدها وانتصبت واقفةً ثم أرخت ثقل جسدها

على طاولة الاجتماعات الضخمة وواجهتني بشفتين مرتجفتين وعينين دامعتين. أشفقت على المخلوقة، ولأول مرة وضعت نفسي في مكانها. ما الذي يجعل من زوجة حيواناً شرساً كهذه. . . ألست زوجة مثلها معرَّضة لأمراض الغيرة ومهدَّدة بها؟ إلا أن نظرات البغض لم تترك للشفقة مكاناً. . وسرعان ما شعرت بجوٍّ من الرعب يخنقني، وخلال دقائق صمت مخيف سمعت ضحكات الموظفين العائدين من استراحة الغداء.

هل أستغيث؟ هل أعرّض نفسي، وأنا مديرتهم، إلى استهزائهم؟ وكانت وأنا أخطِّط لخلاصي تنظر إليّ وكأنها قرَّرَت بينها وبين نفسها أني قد استسلمت فاستمدَّت قوّة جديدة من حيرتي وارتباكي وارتفعت نبرة صوتها وعلت وانفجرت:

ـ لا تحاولي أن تنكري ما أعرفه عنك. . أنا أعرف كل شيء جرى بينكما. . . أعرف أماكن اجتماعكما. . طلاق. . . . . . اسمك في المحاكم. . سترين كيف سأنتقم منك. منكما أنتما الاثنين. . . الطلاق. . . . وقتها ستعرفين كيف تختبئين وراء وظيفتك. . . إني أكرهه وأكرهك. . . لا. . لا. . لا تحاولي أن تنكري شيئاً. . . . حياتي وأولادي. . . . ولكني أميركية والقانون يحميني. . . طلاق. . . أولاد. . . وأنت. . . وأنت. . . وأنت. . .

لم أعد أستوعب كلامها ولا أذكر إلا منظر شفتيها تتحركان، وصوت قبضتها وهي تدقّ بها على الطاولة. . جمدْتُ في مقعدي وجمد الكلام في حلقي. استدَرْتُ إلى الوراء ويدي في الهواء

تبحث عن يد زوجي الرزين العاقل يمدّها إليَّ بالمعونة.. وانتصبَتْ أمام عينيّ صورتُه كعادتي في المآزق وشعرت بالحاجة الماسّة إليه في هذا الوضع المزري.

كنت قد تعوّدت أن ألجأ إلى تشجيعه وأن أستمدَّ الأفكار منه، وكثيراً ما كنت أعود لنفسي أسألها ماذا كان يفعل لو وجد نفسه في مكاني؟ أمّا الآن فما عساه أن يفعل وليس بالإمكان أن يتعرّض لِما أتعرّض له كامرأة؟

تنبَّهْتُ فجأةً وأنا أسمع المرأة تنفجر بالبكاء وترخي رأسها على الطاولة مُخفيةً وجهها.. هل أقترب منها؟ هل أحاول أن أواسيها؟ هل ألمسها؟ وكيف.. كيف أقنعها بأني آخر من يدنِّس الزواج أو يخون الزوج؟

وفي مجال الدفاع عن النفس تسارعَت في ذهني عبارات كهذه:

أنا امرأة سعيدة مع زوجي... إني أحبّ زوجي حبًّا لا يوصف وهو يبادلني الحب والصداقة أيضاً.. إنّ تقديرك لي خاطىء.. إن علاقتي بزوجك علاقة عمل ليس إلا.... إن زوجك لا يروق لي.. إني مكتفية مكتملة.. إني صاحبة قضية...

ولكن بدلاً من أن أتكلّم أخذت أتمتم بعبارات لا تُفهم - ومرّ وقت بدا لي طويلاً جدًّا وأنا أرتجف في مقعدي خوفاً. ثم هبط عليّ فجأة وضوحٌ عقليّ مكّنني من السيطرة على الموقف.

فعليَّ أن أقرر وبسليقة المرأة: هل أنا أمام مأساة إنسانية مؤلمة، زوجة أعمتها غيرتها فحقدت على امرأة أخرى سمعت زوجها يمتدحها أو يتكلم عليها باحترام فصوَّرَت لها مخيّلتها أن هناك علاقة بينها وبين زوجها؟ أم أني أمام ممثلة بارعة أرسلَتْها المخابرات الإسرائيلية/الأميركية لتحطِّمني وتكيل لي أبشع التهم فتُفقدني وظيفتي وزوجي معاً، وتُلهيني عن العمل من أجل قضيّتي؟.

انتصبَت المرأة واقفةً ومرّت بيدها على شعرها ثم تناولت نظارتها من على الطاولة واتجهت نحو الباب... وقبل أن تقفله وراءها التفتت إليّ وحدجتني بنظرة كراهية لن أنساها ثم ودّعتني بقولها:

ـ سأنتقم منك! ستَريْن.

قرأت علامات الاستغراب في أعين الموظَّفين الذين تجمَّعوا في مدخل مكتب الإعلام وقد سمعوا شهيق المرأة الأميركية الغريبة، وكان عليّ أن أقدّم تفسيراً ما:

ـ أرأيتم هذه المسكينة؟ ـ قُلْتُها وأنا أنقل نظري بين وجوه ماعت معالمها واندمجت فأصبحت وجهاً واحداً ـ تصوَّروا أن المسكينة تتخيّل أن زوجها قد هجرها من أجل القضية الفلسطينية!

واستدرْتُ ثم سِرْتُ بخطوات بطيئة إلى مكتبي وأقفلت الباب خلفي.

# الكــــذّابة

كلُّنا يذكر الطريقة التي زُفَّ بها الوفد الفلسطيني إلى مقر «الأمم المتحدة» في «نيويورك» خريف عام ١٩٧٤ وما رافق تلك الدَّورة من أحداث دراماتيكية عالمية:

وقع عليّ الاختيار لأن أكون عضوة في الوفد الضخم الذي ما تمّ انتقاؤه إلا وأحدث ضجَّة إعلامية كبرى ليس في «الولايات المتحدة» فحسب بل وفي العالم بأسره، وتصدَّت لتلك الضجّة حملة شرسة من قبل يهود أميركا الصهاينة الذين لم يتركوا وسيلةً إلا واستعملوها للحيلولة دون دخول الوفد إلى «الولايات المتحدة» إلا أنهم لم يفلحوا في ذلك قانونيًّا.

وما إن داست أرجلنا أرض «نيويورك» حتى ابتدأ الحاخام «ماير كاهان» الإرهابي الكبير وجماعته بإطلاق التهديدات بقتلنا على صفحات الجرائد. ثم نشر هذا الإرهابي المخيف الصيت شعاراً أصبح يتردد على ألسنة «يهود نيويورك»: «لن يغادر الفلسطينيون نيويورك أحياءً» وسرَت الهَسْتَرَة بين صفوف ميليشياته ومعظمهم من الشبان والشابات الذين لم يسمح لهم ذووهم بالهجرة إلى إسرائيل فاعتبروا «نيويورك» عاصمتهم ونصبوا «كاهان» قائدهم الروحي ـ فكيف يحضر الفلسطينيون الآن إلى مدينتهم؟ وكيف يحقّ لهم أن يتباروا معهم في عقر دارهم؟

ولم يتلقَّ رجال الأمن الأميركيون تلك التهديدات المتصاعدة بخفّة بل جنّدوا أعداداً ضخمة من عناصرهم لحماية الوفد الفلسطيني جماعة وأفراداً فلم يعد باستطاعة أحدنا التجوّل دون مرافقة مسلّحة ودون إعطاء عِلْمٍ مُسْبَق.

ومن الطبيعي أن تستغل الإدارة الأميركية فرصة الحماية المشدّدة لرصد جميع تحركاتنا والاطلاع على اتصالاتنا التي أصرّت أن تُخْتَصَر قدر الإمكان خارج «المبنى الزجاجي للأمم المتحدة».

ثم وزّعت على كل عضو منا بطاقة باسمه تحمل صورته بعد أن أفرغوا لوفدنا جناحاً داخل «الأمم المتحدة» نفسها لِنُدير أعمالنا فيه ونحدّ من تحرّكاتنا خارج المبنى.

قيل: «تعلّموا من عدوّكم وحارِبوه بأسلحته ذاتها». وما أبرع العدوّ في استخدامه لسلاح الإعلام في معظم الأحيان ونجاحه في التعتيم على كل حدث أو تعليق إيجابي يتعلق بدولة عربية أو بمواطن عربيّ، إلا أن هناك أحداثاً معيّنة تجري في عالمنا العربيّ أو تتعلّق به يصعب على الدعائيِّين الصهاينة الإقلال من أهميتها أو طمسها. وعندها فقط يبدأ الإعلام الأميركي الفضولي بطبيعته بممارسة وظائفه الإعلامية دون الالتزام التامّ بتعليمات الصهاينة المراقِبين ولكن دون فقدان ذاكرته العِدائيّة نحو العرب كلّيًّا، وعندها يفلت زمام الأمر لفترة ما ويغدو السبق على نشر الحدث الدراماتيكي أهمَّ من التقيّد بالوعود المقطوعة لأصدقاء إسرائيل وحُماتها.

وجاءت زيارة الوفد الفلسطيني إلى «نيويورك» كإحدى تلك الاستثناءات «فضاح» الإعلام الأميركي (والنيويوركي بالذات) وأخذ يتابع أخبار «الأمم المتحدة» ككلّ وتحرُّكات الوفد الفلسطيني بشكل خاصّ، ولم يتمكّن الصهاينة من تطبيق سياسة التعتيم على تلك الأحداث بالذات.

وانهالت علينا الطلبات الإعلامية:

مقابلات تلفزيونية، أحاديث إذاعية، مقابلات وأحاديث مع الصحف والمجلّات. وكنت أتلقّى هذه الطلبات بحكم مسؤوليتي عن الإعلام ثم أحيلها إلى الزملاء والزميلات دون رفض أيٍّ منها، فالإعلام... الإعلام قبل كل شيء كان شعاري ولا يزال.

ومن ضمن الطلبات المتراكمة أتى طلب من إحدى المحطّات الإذاعية النيويوركيّة يحدّد طلب مقابلة مع أحد أعضاء الوفد بالاسم فأحَلْتُها إلى الزميل بسرعة مع ما رافقها من تعليمات، ورجَوْته أن يقبلها دون قيد أو شرط، ليس فقط لأهميّة الإذاعة بل أيضاً لشعبيّة المذيع وشهرة برنامجه.

ولم تمضِ بضع ساعات إلا وعاد المسؤول عن البرنامج الإذاعي يتصل بي:

ـ أريد أن أعتذر عن عدم تمكُّني من تنفيذ دعوة السيد فلان عضو الوفد الفلسطيني إلى برنامجي هذا المساء.

ـ هل تتراجع عن دعوتك إذاً؟ لماذا؟

ـ المسألة بسيطة لقد سمعَني بعض سكان البناية التي تقع

الإذاعة في طابق منها أُعلن عن ضيفي لهذا المساء فاجتمعوا وأقاموا دعوة مستعجَلة لدى إحدى محاكم مدينة «نيويورك» فحكمت لهم بعدم السماح له بدخول المبنى أو حتى الاقتراب منه.

ـ لماذا؟ وهل باستطاعتهم أن يفعلوا ذلك؟

ـ إنه إرهابيّ أليس كذلك؟ وهذا ما يعرِّض أمن المبنى وسلامته للخطر.

ـ بالفعل إنكم بسطاء، أين صحافتكم الحرّة؟

ـ قلت ذلك وغير ذلك وصوتي يرتجف غضباً، ثم أقفَلْتُ السماعة.

مرّت بضع ساعات أخرى وإذا بالشخص نفسه يطلبني هاتفيًّا مرة أخرى:

ـ لديّ خبر سارّ. . . لقد عاد محامي الإذاعة وربح الدعوة المستعجَلة لصالحنا فباستطاعتي الآن أن أدعو من أشاء ـ فهل لك بتأكيد دعوتي لفلان؟.

انعقد لساني وأُصِبْتُ بدهشة:

ـ أهكذا تسير الأمور في مدينة نيويورك؟

وأكملت:

ـ ولكني آسفة، إن فلاناً الذي كنتَ قد طلبتَه بالاسم قد غادر المدينة منذ ساعة ولن يعود.

لم يتمكن المذيع من إخفاء خيبة أمله، إذ إنه كان يذيع لمستمعيه النهار كلّه آخر تطوّرات الحادثة.

ـ والآن؟ ماذا تريدينني أن أفعل؟ لقد حاربت نصف سكان المدينة من أجله؟.

أجبت بشماتة مستعمِلةً عبارة كثيراً ما يستخدمها الأميركيون أنفسهم للتشفي:

ـ هذه جنازتك أنت.

وعاد صوته يستغيث:

ـ أليس بإمكانك مساعدتي؟

وحبكت لديّ فكرة جديدة:

ـ لِمَ لا؟ فنحن زملاء وواجبنا أن نتعاون في المواقف الحرجة ـ سآتي بنفسي.

ـ أنت؟ ألست، ألست سكرتيرة؟

مرة أخرى يُفترض أنه في «الولايات المتحدة» أن الصوت النسائي على الهاتف يعود إلى سكرتيرة أحدهم. ابتسمت لنفسي وأجبت:

ـ لا. . يا عزيزي. أنا لست سكرتيرة. إن موقعي في الوفد الفلسطيني يعادل موقع فلان الذي كنتَ قد طلبتَه بالاسم.

ـ حقًّا؟ إذاً. . . احضري في الموعد المحدَّد فذلك أفضل من لا شيء.

طلبت من إحدى الزميلات مرافقتي إلى دار الإذاعة، كما قمنا بإبلاغ الـ إف. بي. آي عن تحرُّكاتنا فأرسلوا مَن يرافقنا (أو يراقبنا) ووصلنا قبل الموعد المحدَّد بدَقائق.

ـ وكان لهذا المذيع ـ ولا يزال ـ برنامج ذو شعبية هائلة فهو معروف بجرأته وباختياره للموضوعات المثيرة وبطريقته الوقحة في تحدّي ضيوف برامجه وبعدم التزامه بقواعد التهذيب. ثم إنه يحاور الضيف أو الضيوف على الهواء رأساً تاركاً بعدها المجال للمستمعين لتوجيه الأسئلة أو التعليقات التي يختارها هاتفيًّا دون انتقاء الصالح منها كما يفعل غيره من المُذيعين، فكل شيء مُباح في هذا البرنامج بما في ذلك العبارات النابية.

قادني أحد معاوِنيه إلى استوديو التسجيل رأساً بينما كان صديقنا المذيع منهمكاً في تقديم إعلان من الإعلانات التي تتخلل البرنامج، فلم يرفع نظره إلى القادمين، بل استمر في «مدح» البضاعة، ثم أشار إلى الفنّيين في الغرفة الزجاجية المقابلة لوضع الشريط المناسِب لهذا الإعلان بالذات، ثم أقفل ميكروفونه. وبعد لحظات استدار بكامل جسده نحوي وركّز نظره عليّ طويلاً:

ـ أأنت فلسطينية؟

ـ نعم.

ـ هل لديك ما يثبت عضويّتك في الوفد الفلسطيني إلى الأمم المتحدة؟

تناولت بطاقة الأمم المتحدة التي تحمل صورتي واسمي وعضويّتي في الوفد ووضعتها أمامه. عندها أشار عليّ بالجلوس على مقعد مقابِله. ثم عاد وفتح الميكرفون أمامه وابتدأ.

ـ أمامي الآن سيدة لا بأس بشكلها الخارجي تدّعي أنها عضوة في الوفد الفلسطيني إلى الأمم المتحدة.. هذا الوفد الذي أتى إلى نيويورك بالرغم من معارضتنا جميعاً ولقد طلبت أن تحضر إلى البرنامج كبديلٍ لفلان الذي كنت قد كلّمتكم مراراً عن قصّة دعوته اليوم.. كما تدّعي هذه السيدة أنها مستعدّة للإجابة على أسئلتنا ـ فدَعُونا إذاً نستمع إلى ما لديها من أقوال وحكايا.

ـ أيتها السيدة، ألا يعلم وفدك الفلسطيني أن مدينتنا لا ترغب في استقباله وأنه لا مكان لكم في «الأمم المتحدة»؟ هل لديك فكرة عمّا تكلّفون الفرد الأميركي من ضرائب يوميًا من أجل حمايتكم؟ فهذه نفقات باهظة تُخصم من الضرائب التي يدفعها النيويوركي لتحسين مدينته وتجميلها وليس لتوسيخها وتعريضها للخطر.

وتركته يستنزف كل ما عنده من سموم دون مقاطعته حتى تعب وسكت. عندها ابتدأت أتكلم بهدوء مدروس بعد أن كنت قد عاهدت نفسي أن لا أسمح له أن يُفقدني أعصابي. وبعد دقائق استرقت النظر إليه فإذا به يستمع باهتمام لا بل ورأيته يهزّ رأسه موافِقاً عدّة مرّات، كما رأيته يبتسم مشجّعاً محبِّذاً رأياً ما مرّات عديدة. أقول كان يهزّ رأسه ويبتسم إلا أنه لم تبدر منه كلمة واحدة تدلّ آلاف الآلاف من مستمعيه على أيّ تغيير في موقفه!

ثم ابتدأت الأسئلة الهاتفية تنهال عليّ معظمها من نساء صهيونيّات من مدينة «نيويورك» ومن «حيّ بروكلن» بالذات (وإني خبيرة بالتعرف على اللهجات النيويوركية بعد عشر سنوات أو أكثر قضيتها في مدينتهم) وكانت جميعها ذات نبرة هستيريّة وفحوى اتهامي هو سؤالهم:

ـ ألستم إرهابيون بطبيعتكم؟ أنتم تقتلون الأولاد والشيوخ في إسرائيل. ألا يكفيكم ما عندكم من أراضٍ عربية شاسعة والآن تريدون أن تتعدّوا على قطعة أرض صغيرة منحها الله لليهود؟

وأخذْتُ أجيب على كل اتهام بتأنٍّ وبِطُول بال، فالأسئلة لم تكن تُطرح كأسئلة وإنما كانت تُكال بشكل اتهامات أكيدة لا شكّ فيها. وما كنت أنهي جملة أو اثنتين إلا ويأخذ المذيع المحترم الطاولة بيده وهو يصيح: أنت كذابة. أنت تكذبين.

وصلنا أخيراً لفترة الإعلانات والاستراحة حين تُقفل الميكروفونات في الاستوديو وتبدأ الإعلانات، عندها استدرت إلى المذيع بألم وغضب:

ـ ما الذي جرى لك؟ لماذا لا تسمح لي بإنهاء جملي؟ هل جننت أم ماذا؟

ـ إني أقوم بواجبي ليس إلا. قالها وعاد إلى فتح الحوار على الهواء!

وعُدْنا معاً لِنُكْمِل التمثيلية المجنونة: أسئلة أو تعليقات

هاتفية يتبعها جوابي ثم تعليقه المهين: «أنت تكذبين! أنت كذابة! كذابة! يا لها من كذبة!»

أعددت نفسي لإكمال هذه التمثيلية إلى آخرها وقرّرت أن أعطي أحسن ما عندي ضمن الإطار الذي حدَّدْته لها. وكنت بين الحين والآخر أسترق النظر إلى خارج غرفة الاستوديو الزجاجية فأرى زميلتي العربية تقفز غيظاً من مقعدها وتستدير هنا وهناك وكأنها تبحث عن مخلِّص أو تتشاجر مع أشباح.

استمر الكابوس لمدة ساعة ونصف الساعة حتى اختتم صديقنا برنامجه ودعاني للخروج خارج الأستوديو حيث تلقَّته زميلتي عند الباب والغضب يكاد يخنقها:

ـ ما هذا الذي فعلته؟

استدار حوله ليتأكد من أنه ليس هناك زميل يسترق السمع ثم وضع كلتا يديه على كتفينا وهمس:

ـ ليس بإمكاني أن أتصرف بأية طريقة أخرى. هل تريدانني أن أفقد وظيفتي في المحطة أو أن تُسحب مني إعلاناتي؟ إنّي أوافق على معظم ما قالته «رندة» ولكن ليس باليد حيلة. . . . فأنا لست يهوديًا وأتفهّم قضيتكم. بل وأنا متعاطف مع العرب عامّةً والفلسطينيين خاصّةً ولكن. . . نظرَت إليه صديقتي بعد أن نفضت يده عن كتفها:

ـ لقد تعلّمنا درساً لن ننساه عن حرية الرأي وممارسة الديمقراطية في الولايات المتحدة. هنيئاً لكم بها... فنحن لا نحسدك على ما تسمّيه حريتك كان الله بعونك....

وتركناه خلفنا..

# امرأة ذات قلب ضخم

في الطريق من مطار مدينة «پتسبرغ» في ولاية «پنسلڤانيا» إلى الفندق في منتصف المدينة العريقة استدرت نحو رفيقة الرحلة، ممثِّلة شركة العلاقات العامة الأميركية التي تعاقد معها مجلس النساء العربيات، ولم نَكَد ننتهي من مناقشة حصيلة اليوم وسألتها:

ـ وغداً؟ ما هو برنامجنا؟

ـ دعيني أراجع أوراقي.

قبلت ورفيقاتي أن نتحول إلى بضائع أي أننا اتفقنا مع تلك الشركة ذات الصيت العالمي أن نترك لممثليها أمر الاتصال والتعاقد مع وسائل الإعلام بما في ذلك شركات التلفزيون ومحطات الإذاعة وإدارات تحرير الجرائد والمجلّات، كما تعهّدنا أن ننفّذ تعليماتهم ونصائحهم في كل ما يتعلق بالشكل العام: اللباس والألوان والتسريحة وكذلك نبرة الصوت أو ترديد عبارة ما. وتخرَّجنا على أيديهم بعد محاضرات مكثَّفة استعرضنا خلالها أفلاماً أُخذت لكلٍّ منّا في أوضاع مناقشات سياسية تمثيلية التُقِطَت كتمارين لنا في استديوهات شركة العلاقات العامة الآنفة الذكر وخرجنا منها بتفهُّم أوضح للحِيَل التلفزيونية الأميركية الفنّية منها والآليّة والبشريّة.

ـ انظري إلى ضوء معيّن. لا تضعي رجلاً على رجل، ممنوع ارتداء البنطلون، الأزرق هو لونك المفضل، تخلّصي من عادتك ببدء جملك بعبارة «حسناً». إلى ذلك من ملاحظات دقيقة ساهمت في إنجاح حملة مجلسنا هذه.

كان يحقّ لممثّلي الشركة التدخّل في كل أمورنا بما في ذلك ساعات النوم والراحة ما عدا أمراً واحداً ألا وهو فحوى ما نقوله ـ أي آراءنا السياسية أو اتجاهاتنا الفكرية القومية منها والعقائدية، فعندها تتوقف مسؤوليتهم وتبدأ مسؤوليتنا، ومع الزمن استحقّينا لقب مُحترفات.

كنا ثلاث نساء عربيات تقاسمنا الولايات المتحدة، كلّ واحدة منا غطّت ما لا يقلّ عن سبع ولايات خلال سبعة أيام متتالية في أواخر شهر تموز وأوائل شهر آب من عام ١٩٨٢ وبيروت ترزح تحت الحصار.

أخذَت رفيقتي الأميركية (غير المنحازة حتى الساعة) تشرح لي مواعيدنا الإعلامية في مدينة «پتسبرغ» المشيّدة بأموال اليهود الصهاينة:

ـ لديك مقابلة تلفزيونية هامّة جدًّا وطويلة مع نجمة پتسبرغ التلفزيونية دوروثي.

ـ اسم يهودي، أليس كذلك؟

ـ مع الأسف، نعم.

وما إن وصلنا إلى الفندق العريق وتجوّلنا في صالوناته حتى

تسمّرت أبصارنا على قاعة تحمل اسماً مطابقاً لاسم المذيعة التلفزيونية، دفعَنا الفضول للاستفسار عن هذه الصدفة: فأتى جواب موظف الاستقبال في الفندق ليضاعف من حيرتي ومخاوفي، لقد أُعيد تسمية القاعة مؤخراً لتحمل اسم المذيعة المحبوبة.

ـ قاعة في فندق تحمل اسم مذيعة؟ أيعقل أن تكون محبوبة إلى هذا القدر؟

ـ إن أهالي پتسبرغ لا يحبّون «دوروثي» فحسب بل إنهم يعبدونها!

ومنذ تلك الدقيقة تركّزت أفكاري وعواطفي على «دوروثي» المجهولة، لا بد أن تكون ملكة جمال. فالأميركيون يقدّسون الجمال على الشاشة، كما ولا بدّ أن تكون آيةً في العقل، ولا بد أنها كيهودية تتزعم حملات الدفاع عن إسرائيل. ونِمْتُ وأنا أصارع شبح «دوروثي» التي غدت ضرّتي وغريمتي من بين نساء العالم أجمع.

وفي فجر اليوم التالي بَذَلْتُ الجهود لأتقن ما تلقّنْتُه من فنون المظاهر التلفزيونية الخدّاعة، ومع ذلك لم نَصِلْ إلى مقرّ شركة التلفزيون إلا وكانت ثقتي بنفسي قد تقلّصت!

قرَعَت السكرتيرة غرفة السيدة «دوروثي» ودفعت الباب فاستقبلنا منظر مذهل.

غرفة كبيرة عبارة عن ثلاثة دكاكين في واحدة: دكان زهور

ودكان شوكولاته وثالثة للعطور.

لأول وهلة لم أميِّز البشر لكثرة البضاعة، وكتفسيرٍ سريع لهذا المنظر الغريب بادرتنا السكرتيرة بالقول:

ـ اليوم عيد «دوروثي»، والهدايا تنصبّ علينا من المعجبين والمعجبات من جميع أنحاء «پتسبرغ» و«الولايات المتحدة».

تركّز نظري أخيراً على هذه المعجزة:

امرأة صغيرة الحجم مختبئة وراء طاولة ضخمة تخفي معظم جسدها ما عدا رأسها الذي أحاطته هالة من الشعر بلون برتقالي فاقع. ارتفع الرأس ببطء من وراء تلالٍ من برقيات التهنئة فإذا بعينين شابَّتين تلمعان وسط تجاعيد وجهٍ في الثمانين.

ـ نعم من أنت؟

ـ أنا آتية من قِبَل «مجلس النساء العربيّات في واشنطن» لأكون ضيفة برنامجك اليوم و. . .

ـ ولكني سألت مَن أنت؟

ـ أنا ـ أنا زوجة السفير السوري لدى الأمم المتحدة.

ولم تكن تلك طريقتي العاديّة للتعريف بنفسي، إنما اتفقنا مع أزواجنا ومن ثَمّ مع الشركة على تقديمنا أنفسنا بصفة أزواجنا في بعض الحالات وذلك لكسب الاحترام والاهتمام من قِبَل الإعلام الأميركي.

ـ سوري؟ أنا لم أطلب سورية كنت قد طلبت زوجة السفير السعودي.

ثم حوّلت نظرها إلى سكرتيرتها وسألتها:

ـ والآن؟ دور مَن الآن؟ لفظَتها بنبرة صوتٍ هستيريّ.

يا لِوَقاحة هذه المخلوقة أو يا لِقباحتها ونشاز صوتها!

اقتربَت مرافقتي الأميركية من مكتبها وابتدأت بحوار هامس معها. دامت المفاوضات دقائق كانت «دوروثي» خلالها تتفحّصني بنظرات جانبية، وانتهت بقبولها استضافة «سوريا» بدلاً من «السعودية»، أما أنا فكنت أضغط على الأعصاب كي لا أنفجر وأُعلمها بأن زوجة «السعودي» هي فعلاً «سورية»، أما زوجة «السوري» فهي «فلسطينية» وأن أُمَّيْنا الاثنتين لبنانيتان وأننا جميعاً عرب ولا أحد يفرّقنا مهما حاولوا تثبيت تلك الحدود.

أذكر أننا استعرضنا بعدها أسلوب برنامجها وتسلسل الموضوعات المطروحة وسرّني أنّ بِنِيّتها الخوض في السياسة، وانتهينا بتأكيدها أن على الضيف أن يصرف الدقيقة الأولى من البرنامج ثم فترة وجيزة أخرى بعد انتهائه بحديث غير مسجَّل لدى المستمع وذلك للسماح لمخرج البرنامج بتقديمه ومن ثمّ بإنهائه بأسلوب فنّي.

وقفت «دوروثي» أخيراً فإذا بها قزمة أحنت الشيخوخة ظهرها فتقلّص حجمها. تسمّرت الأنظار عليها وهي تحدو نحوي ثم تتأبط ذراعي:

ـ هلمّ إلى الاستوديو، لقد حان الوقت، ثم أضافت في سرداب التلفزيون المبطَّن:

ـ أعجبني عنادك. لا بدّ أنك ملتزمة بقضيّة ما.

أدارت الحديث بأسلوب ذكيّ وعاطفي. هاجمَت وتعاطفت في آن واحد، سألتَ بجدِّيَّة واستمعت بكلِّ حواسِّها، سحرَتني كمتحدِّثة فأخرجت أفضل ما عندي من معلومات وحجج، مرّت النصف ساعة وكأنها دقيقة ونصف الدقيقة.

جلسنا في الثامنة مساءً في غرفتي ننتظر برنامج «دوروثي» الذي سُجِّل صباحاً، ولم يخب ظنّنا في تقييم محتوياته، وما إن أتينا إلى آخره حتى طفرت الدموع من أعيننا.

شاهد جمهور «دوروثي» تلك الليلة معبودتهم في آخر برنامجها تقفز من كرسيّها وتمدّ ذراعيها لتعانق ضيفتها ثم تقبّلها بحنان الأم.

لم يسمع أحد سواي كلمات التعاطف والتقدير بل وتمنّيات تلك المرأة ذات القلب الضخم.

# حائط المبكى

لي مع يهود أميركا حكايات ومغامرات منها المؤلم ومنها المضحك. كما أني أحمل ليهود أميركا عواطف متناقضة: أضمر لبعضهم الحب والإجلال وهم الأقلية ـ في حين أختزن للأكثرية الساحقة منهم أكبر قسط بمقدوري اختزانه من الحقد والكراهية. وبالرغم من أن المسألة ليست شخصية إلا أن ليس بإمكان عربي عمل في حقل الإعلام في الولايات المتحدة الأميركية إلا وأن يستهلك عواطفه الخاصة وهو (أو هي) يخوض معركة مصيرية للسيطرة على العقل الصغير الذي يتحلى به المارد الأميركي الجبّار.

وإذا اخترنا عينات من الصنف الأول ـ أي أولاد العم ـ ذوي العقل والضمير الحيّ، هؤلاء الذين اتُّهموا بكراهية النفس من قِبَل أهلهم وأبناء ملّتهم، يتمثل أمامي شخصيتان متميزتان: أحدهما توفاه الله والآخر أطال الله في عمره.

الأول: «موشي مانوهين» وهو والد الموسيقار الذائع الصيت «يهودا مانوهين». أما الثاني فهو الرابي «إيلمار بارغر» حاخام تقدُّمي في مدينة «نيويورك». . وهناك بالطبع آخرون. . .

في حضرة «مانوهين» و«بارغر» كنت أشعر وكأني أمثل أمام

أنبياء إسرائيل الأولين، هؤلاء الذين مجَّدَتهم الديانات السماوية، والاثنان ألّفا من المؤلَّفات ما يسع الجميع التعرف عليهما من خلالها وعلى أفكارهما المنزلة ولو عن بعد.

أما أنا فقد سنحت لي الظروف أن أحجّ إلى بيت «موشي مانوهين» لأشهر قليلة قبل وفاته حيث كان يقبع كنسر معمّر مجروح في عشٍّ بناه بين الصخور العالية المطلَّة على مدينة «سان فرانسيسكو».

كان هذا النّبي (الإسرائيلي) يحترق غيظاً ويندب الحظ الذي لم يمكنه من إكمال رسالته في الوقت الذي أحس فيه بدنوّ أجله. يومها، شتم نفسه، وشتم ابنه المشهور، وشتم يهود العالم كما شتم العرب والعروبة، ثم تنبأ، تنبأ بمستقبل قاتم وبأيّام دموية لِبَني قومه الذين اتهمهم بتحريف الدين والتاريخ معاً، والذين أنكرهم لأنهم، كما قال ـ نسوا أو تناسوا رسالتهم المقدَّسة وتحوَّلوا إلى حيوانات مفجوعة مسعورة.

واليوم، كيف لي أن أحبِّبكم بـ «بموشي مانوهين» كما أحببته؟ ليس بمقدوري إلا أن أحيلكم إلى كتاباته التي خلّدت أفكاره الحكيمة التي خطّها بعواطف جيّاشة تميّز أسلوبه في الكتابة عن أيّ أسلوب سياسيّ آخر.

أما الحاخام «إيلمار بارغر» فلقد كنت أقفز وأنحني كلما تكرّم وزارني في مكتب الإعلام التابع للجامعة العربية في «نيويورك» وأنا أكنّ رغبة جامحة لتقبيل اليد الممدودة إلي بسلام حارّ. سطحيًّا كان الحاخام «بارغر» يبدو وكأنه إنسان هادىء نفسيًّا

وقنوع إلا أنه وراء هذا المظهر المتّزن كانت تكمن ثورة من الحقد على الصهاينة الذين جرّوا يهود العالم معهم إلى الانحطاط، بل وإلى الهلاك. وكما فعل «موشي مانوهين» قبله سجّل الرابي «بارغر» تنبؤاته في مؤلفات عديدة. بارك الله فيهما، بل وباركنا ببركتهما، فالتلامذة الذين حملوا رسالتهما وانتموا إلى مدرستهما ما زالوا يعملون من أجل تحقيق العدل والسلام، وإن كان الوريث المنتظر لم يظهر إلى الوجود بعد.

قادني حماسي في أحد الأيام إلى التبرع بالسفر إلى كندا لإلقاء محاضرة مشتركة مع أحد تلامذة مدرسة «مانوهين/بارغر»، أسمّيه تلميذاً وهو حقًّا كاتب يهوديّ معروف ومحاضر شهير حارب الصهاينة ولا يزال يحاربهم بأفكاره الجريئة المدوّنة في كتب قيّمة.

(اسمحوا لي ألّا أذكر اسمه هنا حيث إني سأدعوكم فيما بعد إلى مقاسمتي التغامز والضحك من وراء ظهر رفيقنا هذا).

قدّرت بالسليقة قيمة ظهور رجل يهوديّ وامرأة عربية في محاضرة مشتركة أمام المئات من المستمعين الكنديّين خاصةً وأن الاثنين متعاطفين بآرائهما ـ وهنا ينتهي التعاطف.

ما إن أقلعت بنا الطائرة من مطار «نيويورك» حتى بدأ «دافيد» (اسم مستعار) ينقّ وهو يسرد عليّ تضحياته الحديثة في سبيل القضية مؤكّداً على تخلّي الجميع عنه بما فيهم والدته العجوز التي أعلمته مؤخراً عن نيّتها في حرمانه من الميراث، وكذلك حاخام كنيسه الذي أنذره أنه لن يُدفن في مقبرة يهودية ولن

يُصلّي عليه في كنيس في حال استمراره في التصدي لإسرائيل. وفسر ذلك بقوله إن هذه الضجة الحديثة ترجع إلى كونه يستعدّ لنشر كتاب حول الشرق الأوسط، ورغبةً منه في إثبات قوله هذا، انحنى ورفع حقيبة يد ثقيلة إلى حضنه وبدأ يقلّب أوراقها ورقةً ورقة.

أما أنا فاغتنمت هذه الهدنة عن الكلام لأسترق النظر إلى المرآة وأستشيرها في إصلاح ما خرب من شؤون وجهي.

سمعت «داڤيد» يلهث وهو يعيد التفتيش للمرة العاشرة ثم يتمتم:

ـ ليست هنا... أوراقي... ليست هنا، لقد وضعتها هنا هذا الصباح! كيف يمكن ألّا تكون هنا؟.

ولكنها فعلاً ليست هنا...

أثارت أعصابي نبرة صوته، فالتفتّ إليه أسأله:

ـ عمّ تفتّش؟ أتريد المساعدة؟

انفجر بصوت أعلى:

أخذوها! سرقوها! حتماً سرقوها! إمّا في شقّتي أو في المطار.

لا بد أنهم يراقبونني! سرقوا مخطوطة كتابي الوحيدة! ماذا أفعل؟

ـ من؟ من الذي سرقها؟ من هم؟

ـ أنتِ لا تعرفين شيئاً! من المؤكّد أنهم سرقوها.

أضاف وهو يرمي الأوراق جانباً ويتفحّصها فيقع بعضها على حضني ويستقرّ بعضها الآخر على أرض الطائرة.

أخذ صوته يعلو لا بل إنه أخذ ينتحب ويصيح وهو يقوم بحركة رأسٍ تلقائيّة ذكَّرتني بتصرف المصلِّين أمام حائط المبكى في مدينتي «القدس».

أخذ «داڤيد» يضرب برأسه على المقعد أمامه بانتظام حتى غدت حركته هذه أسرع فأسرع، وهو يستغيث:

ـ كيف يفعلون ذلك؟ ماذا فعلت أنا يا ربي؟ لماذا تعاقبني بهذا الشكل؟ أأخطأت بحقِّك يا إلٰهي؟ ساعديني، يا رندة ساعديني! كيف؟ كيف يسرقونها مني؟

استدرت إلى باقي ركّاب الطائرة أطلب المعونة فإذا بالجميع مستديرين نحونا وهم يحدجونني بنظرات الاستنكار الممزوجة بالاشمئزاز من هذا التصرف الهستيري الصادر من جهتنا.

طلبت كأس ماء للترويح عن زميلي المنكوب فأشاحوا بوجوههم عني وكأنهم يتفادون الخوض في مشكلة غرباء لا يعنونهم في شيء، ولكن سرعان ما كان يدفعهم فضولهم إلى متابعة تمثيليّتنا هذه.

ضغطت على زرٍّ لاستدعاء مضيفة الطائرة فإذا بإحداهن تهرول نحو مقعدنا وهي تؤنبني بصوتٍ عالٍ:

ـ الرجاء يا مدام أن تهدِّئي من روع زوجك فلقد أزعج ركاب الطائرة بما فيه الكفاية.

ـ زوجي؟ إنه ليس زوجي!
إذاً صديقك، لا أدري.
واستخدمَت كلمة «صديق» بمفهومها الغربي.
ـ صديقي؟؟ لا، يا آنسة، إنه ليس صديقي!

ـ مدام! إذا استمرّ الحال على ما هو عليه سأضطر إلى الاستعانة بقبطان الطائرة!

تنذرني هذه الحقيرة بدل أن تساعدني في إنقاذ ضيف لديها
ـ أليست مضيفة؟

ـ استعيني بالله إن اخترت، فأنا لست مسؤولة!

تحمّس بعض الركاب الشجعان فهجروا مقاعدهم وعقدوا حلقة حول مقعدَيْنا.

يقولون «ذبت خجلاً» وحقًّا ذبت، كما يقولون «تمنيت لو تنشقّ الأرض وتبلعني» وكيف لها أن تفعل ذلك ونحن نحلّق في السماء؟.

لم يستعد «داڤيد» وعيه ولم يفتر عن القيام بحركته أو بندبه العالي وأنا أربّت على كتفه وفخذه مثلي مثل الزوجة الحنون، وأسرّ في أذنه كلمات التشجيع والطمأنة.

مَن منهم سيصدّق روايتي الآن أو يوليني قدراً من شفقته أو

تعاطفه؟ لماذا أزجّ بنفسي في مواقف كهذه، يا رب؟ وهل يتطلّب النضال من أجل القضيّة من المرء أن يتحمّل الإهانة والاحتقار من قِبَل أغراب يُصدرون أحكاماً أخلاقية قاسية أتلقّاها دون أن أتمكن من الدفاع عن نفسي أو إضفاء تفسيرٍ مقنعٍ على وضعٍ غريب عجيب؟ لا بد أن هذا الرجل يشكو من مرض نفسي خطير ألا وهو الخوف من الآخرين (الفوبيا)، مرض يصوّر له أعداءً غير حقيقيّين ينوون له الشر ويتربّصون به ثم يسلبونه أعزّ ما يملك.

مَن «هم»؟ «هم» هم اليهود الذين تخلّوا عنه ونبذوه بما فيهم أمه. أدركت فجأةً أن حركة «دافيد» قد توقّفت وكذلك صياحه، التفتّ نحوه فإذا بابتسامة رضى ترتسم على مبسمه وهو يحتضن مسوّدة كتابه ثم يضمّها إلى صدره ويقبّلها.

توقّف كفّي عن التربيت على كتفه وخاطبت جمهور الطائرة وكأنهم شخص واحد:

ـ أرجوكم! اعذروا زوجي المسكين فلقد فقد أعزّ ما يملك ثم عاد ووجده ـ عذراً سيداتي سادتي!

# «عيسى» الآخر

هناك ظاهرة اجتماعية درسها العلماء الأميركيون من اقتصاديِّين واجتماعيِّين إلى أطبّاء في علم النفس، ألا وهي ظاهرة الإنهاك واللامبالاة التي تصيب هذا الشعب بعد ظهر يوم الجمعة من كل أسبوع. فما إن تهلّ هذه الفترة حتى يهبط معدّل الإنتاج البشري فترتخي الهمم ويُؤجَّل كل ما يمكن تأجيله إلى يوم «الاثنين الأزرق» كما يلقّبونه عندهم. يكثر الناس النظر إلى ساعاتهم فتتباطأ الدقائق كعادتها تجاوباً مع هذا الإلحاح البشري ونكايةً بتلك الضغوط . وما إن تصل العقارب الزاحفة إلى الساعة الخامسة حتى يستفيقوا كلهم قافزين من مقاعدهم متجهين نحو المخارج وهم يسعون إلى منازلهم حيث يغتسلون من تعب أسبوع آخر.

«إن اخترت وتأخّرت في مكتبك في الطابق السابع والثلاثين ونظرت إلى أسفل إلى «شوارع نيويورك» خلال الدقائق اللاحقة رأيت منظراً مضحكاً مرعباً:

حشود من البشر تسير باتجاهين متعاكِسَين كنمل في حقل مدروس ـ وإذا ابتليت بالتشاؤم ـ فستراهم «كصراصير» في أنابيب صحّية مهترئة، وسترى نفسك في عِدادِهم!

أهكذا يراك الآخرون؟ قاسية أنتِ يا «نيويورك»! وليس أقسى منك إلا حكّامك ورجال أمنك وقوانينك وأغنياؤك.

كان اليوم يوم جمعة، وعقارب الساعة تكاد تلامس الخامسة تماماً عندما هزّني صوت هاتفي الخاص في مكتب الإعلام التابع للجامعة العربية في «نيويورك».

ـ أنا «عيسى»، أتذكرينني؟

ـ «عيسى» من؟

ـ «عيسى» الذي كان يعمل آذناً عندكم في المكتب.

ـ أهلا «عيسى»، ما هي أخبارك؟

استنتجت من صوته أن في الأمر مشكلة كبرى.

ـ أرجوك يا أخت ساعديني، فهذا هو الهاتف الوحيد الذي سمحوا لي أن أستعمله للإعلام عن حالتي قبل ترحيلي.

ـ ترحيلك؟ ومن يرحِّلك؟ وإلى أين؟

ـ قبضَت عليّ الشرطة ظهراً وأنا أسير في مظاهرة فلسطينية أمام مكتب الوفد الإسرائيلي للأمم المتحدة وأتوا بي إلى هنا، ومنذ دقائق أعلموني أنهم قرّروا ترحيلي من البلاد.

ـ ولكنك من «غزّة»، أليس كذلك؟

نعم.

ثم انتظر الفرج والرحمة.

ـ صِلْني بأقرب شرطي ليعطيَني عنوان المخفر.

أملى عليّ صوت أميركيّ بارد عنواناً بعيداً جدًّا ثم عاد

صوت «عيسى» يستغيث:

- لا تنسيني يا أخت، لا تتركيني وحيداً. . .

وانقطعت المخابرة!

نفضت التعب عن كتفيّ وتملَّكَتْني ثورة من الغضب على الإدارة الأميركية قادتني إلى تصرّفي اللاحق.

أمضيت الساعات أتصل بمحامٍ - أيّ محامٍ - ليرافقني إلى المخفر فلم أجد كائِناً يتجاوب معي أو ينقذ صديقي.

يتباهى الأميركيون بعدالة قانونهم ولم أر منه إلا تحيُّزه وصرامته. وصلت إلى المخفر لأجد شابًّا عربيًّا لا يتقن أكثر من عشر كلمات إنكليزية مُحاطاً بأغراب يخاطبونه بطريقة استفزازية ويكيلون له التهم ويستنطقونه بلا توقُّف، أما هو فيجيب بلا أو نعم دون أن يفقه ما يتفوّه به!

ولم يتركوه حتى سمعوا طعني بأساليبهم فوافقوا على استدعاء مترجِم محلّف لإتمام حبك قضيّتهم ضدّه. جاء هذا الطلب لصالحنا إذ إنه أخّر مجرى ترتيباتهم وأجبرهم على تأجيل البت في القضية إلى نهار الاثنين، أي بعد «الويك - إند» المقدَّس.

اغتنمنا هذه الفرصة لتهيئة مسوَّدة دفاع مجيدة عن أخينا «عيسى» وقرَّرت أن أقوم شخصيًّا بعرض قضيّته بالتعاون مع محامٍ تبرّع بإرشادي قانونيًّا.

مثلنا أمام اللجنة في الساعة المحدَّدة، وبعد جدل قانوني

طويل تخلّله ذكرٌ لقوانين وسردٌ لقضايا سابقة لم أفهم منه إلا أننا نجحنا في إقناع اللجنة في أن تستمع إلى الدفاع عن «عيسى».

أما صاحب القضية فكان يجلس إلى يميني وهو يوزّع ابتسامات محبّبة وبريئة على الجميع وكأنه ولد صغير اقترف جرماً صبيانيًا فأتى يعتذر عنه ويستجدي العطف من محكمة أحداث! بالطبع لم يكن «عيسى» يتابع ما يقال بالإنكليزية ولكنه أدرك إدراكاً تامًا أنه محور الحديث ونجم الساعة، فأخذ في تمثيل دور البريء أمام مشاهدين لا رحمة في قلوبهم ولا نيّة لديهم للتعاطف معه.

أتى دوري للتدخل كشاهدة وقلت أشياء كثيرة أذكر أهمها:

إلى أين تُرحِّلون هذا المسكين الذي يمثل أمامكم؟ ألا تعلمون أن بلاده محتلّة من قبل إسرائيل وأنكم تقذفونه في أيدي أعدائه؟ علّق «عيسى» آماله كلّها على حب الأميركيين للحرية واحترامهم للمُثُل الديمقراطية فأتى ليتمتع بما فقده في بلاده القابعة تحت نير الاحتلال. أَمِنَ العدل أن تعيدوه إلى حيث أتى فيزجّ به في سجون إسرائيل مع العشرات من الشبان الآخرين؟ إن أعدتم «عيسى» إلى قطاع «غزة» فسيفقد الحرية التي يتمتع بها كما أنه سيضطرّ إلى «شحذ» العمل من المحتل الذي يستغلّه ويحرمه حقوقه.

تماديت في حججي هذه ثم اختتمت دفاعي بقولي:

ـ إني أطالبكم بمنح هذا الشاب حق اللجوء السياسي الذي

ينطبق برأينا على حالة كحالته.

لكني بعد كل هذا رأيت أنه إن كانت كلماتي قد تركت انطباعاً لدى أعضاء اللجنة فإني شخصيًا لم أر لها أيّ أثر فيهم! فقد بقيَت الوجوه جامدة باردة وكأن الأمر لا يتعلق بتقرير مصير إنسان. وأعلن رئيس اللجنة رفع الجلسة لمدة ساعة للاستراحة. وعندما عادت اللجنة لعقد الجلسة كنت قد تعلّمت درساً جديداً أسرعت بإلقائه:

ـ أيها السادة: لقد أخذتني العاطفة فنسيت أن أسرد عليكم قصة «عيسى» الشخصية: لقد توفي والد «عيسى» وهو في الثانية من عمره فلم يتمتع بحنان الأب ولا حتى بدفء حضن الأم التي أقدمت على زواج آخر بعد انقضاء فترة الحداد مباشرة. لم يعرف «عيسى» إلا الجوع والعري، وكان زوج أمه يتسلى بضربه أمام الآخرين. كان يطارده في الحارات «بكرباج» لاسع، وكثيراً ما كان يسجنه ليلاً في «الحمّام» دون طعام فيقضي الليالي وهو ينوح. وما إن كبر الطفل حتى ابتدأ الطاغية باستخدامه في أحقر الأعمال وأخطرها دون مقابل، وما إن نجح الصبي وكسب بعض المال بعرق جبينه حتى أسرع زوج الأم واستولى على مكاسبه التافهة. واستمر هذا التعذيب بقسوة حتى كبر الصبي وقرر الهرب من البيت والبلد.

لفّقت هذه الكذبة بتفاصيلها وأخذني الخيال فكدت أصدق قصتي المختلَقة وأنا أسردها. أدرك «عيسى» بالسليقة أننا سائرون في طريق النجاح فأخذ يمثّل دوره التراجيدي الجديد: يهزّ رأسه

بموافقة حزينة ويطفر الدمع من عينيه، كل ذلك وهو لا يدرك أين وصلت في سرد سيرته!

أما اللجنة الأميركية فهي إما أنها تجاهلت معاني القصة هذه وغابت عنها لغتها المجازية أو أنها لم تستوعبها ألبتة ـ والله أعلم.

كل ما نعرفه الآن ـ بعد مرور عشر سنوات على تلك الحادثة ـ هو أن «عيسى» يملك ثلاثة كازيات وبقالة محترمة في مدينة «نيويورك»، كما أنه مثال المواطن الأميركي الناجح.

# في عقر كنيسهم

تردَّدْت كثيراً قبل قبولي الدعوة، فالداعون جماعة من أثرياء اليهود الأميركيين الذين يتباهون بعلاقاتهم مع إسرائيل ويتبارون بمدها بالفائض من ثرواتهم الضخمة، لذا فطلبهم الاستماع إلى متكلِّم فلسطينيٍّ كان فقط لزيادة الصورة المشوَّهة في أذهانهم تشويهاً لعدوٍّ كرِهوه قبل أن يعرفوه وأنكروا وجوده قبل أن يتجسد أمامهم. وكلهم كانوا قد أقنعوا أنفسهم بتصريح «غولداماثير»: «مَن هم الفلسطينيون؟ ليس لهم وجود». فهؤلاء إذاً يبغون دعوة فلسطينيٍّ لإقناع أنفسهم بأنه زائف خادع ولِفَضْحِه متلبّساً شخصيةً قومية لا وجود لها. فما عساني أقول لهم وكيف أخاطب قوماً أنكروا وجودي؟

أخذت أعدّ نفسي لهذه المهمّة المستحيلة، وغرقت فترةً في تعاليم الديانة اليهودية أدوّن بعض ما قيل عن التسامح والتعايش. ثم نقّبت عن كتابات بعض مفكري الصهيونية الأوائل فوجدت أن بعضهم تنبأ بالتناقض الخالص بين سماحة الدين اليهودي والتعصب العرقي في السياسة الإسرائيلية. واختتمت رؤوس أقلامي بالاستشهاد بممارسات إسرائيل الحالية وتعارُضها الكلّيّ مع التعاليم اليهودية.

وقتئذ شعرت بأني مسلّحة بما فيه الكفاية لمواجهة أعدائي ولا تنقصني إلا «حبة ڤاليوم» مهدِّئة أبتلعها لساعة أو اثنتين قبل الإقدام على المعركة بمفردي.

استقللت «التاكسي» إلى منطقة «بروكلن» في مدينة «نيويورك» ومررنا بشوارع عريضة جميلة يبدو على سكانها الترف إلى أن أوقفني السائق أمام مبنى ضخم يحمل اسم الكنيس المعيَّن في الدعوة. وبنظرة سريعة إلى معصمي استدركت أني خوفاً من التأخر وصلت قبل الموعد المحدد بما يقارب النصف ساعة. نظرت حولي أفتّش عن مقهى أمضي فيه الوقت وإذا بشخصين يخرجان من الكنيس ويتجهان نحوي ويخاطبنني ببرود وتعالٍ للتأكد من هويتي. ودون إضاعةٍ الوقت في المجاملات قاداني إلى زاوية قاعة اجتماعات كانت تجري فيها جلسة عمل مغلقة وطلبا مني الجلوس على كرسي جانبي ريثما تنتهي الجلسة. وبعد دقائق من تفحُّص للوجوه خطر لي أن أركّز ذهني المشوَّش على موضوع الجلسة فإذا بمقاطع من كلمات المجتمعين تصِلُني دالَّةً على أن هناك مناقشة حادّة تدور حول إعداد ميزانية لإدارة روضة جديدة للأيتام مُلحَقة بالكنيس وسمعتهم، وأغلبهم من الأثرياء الكبار، يتجادلون على الدولارات والسنتات. وأخيراً رفعت الجلسة واستدار عريف الحفل يدعوني لمرافقته إلى قاعة المحاضرات.

كانت القاعة مليئة بالحضور وأكثرهم من الرجال الذين هم في منتصف العمر. وبالرغم من تجاربي السابقة التي أكسبتني

إياها الأيام في مواجهة جماهير المحاضرات شعرت بوجل وكدت أفقد ما ادخرته من عزيمة وأنا أدخل القاعة وأسير نحو المنصّة. لم أسمع الكلمات التي قدّمني بها العريف إلى الجمهور، ولكني أدركت أنها كانت مقتضَبة، وشعرت أن لهجته كانت خالية من الترحيب.

وجدت نفسي أقف خلف المنصة أتفحّص الوجوه وأزن حرارة الجو في القاعة كما هي عادتي قبل البدء بالكلام. التقيت بأعينٍ تتفحّصني بمزيجٍ من العداء والاستغراب. فها قد تجسّد العدوٌّ الفلسطيني أمامهم إلا أنه لم يأخذ الشكل الوحشيّ الذي نُقش في أذهانهم. ولعل كون العدو الفلسطيني امرأة في هذه الحالة زاد في حيرتهم. وبدأت أتكلم متفادية اصطدام نظراتي بنظرات جمهوري العدائي.

والحق يقال إنهم استمعوا إليّ بكلٍ تهذيب، وعندما قام أحدهم يقاطعني تدخّل العريف بحزم قائلاً: «دعها تُنهي كلامها ثم علّق كما تشاء». أكملت كلامي حتى نهاية الساعة، الوقت المحدد لي للكلام، ثم توقفت فلم تصدر عن القاعة حركة! وصعد العريف إلى المنصّة يسأل الحضور عما إذا كانت لديهم أسئلة أو تعليقات. صدر عندها عن الحضور لغط غير مفهوم وكأنهم يعلّقون على كلامي فيما بينهم ولم يرفع أحدهم يده ليطرح سؤالاً. مرّت دقائق وعاد العريف إلى المنصّة ليختتم الجلسة فشكرني باقتضاب ثم ناولني شيكًا بمئة دولار وهو يعلن أمام الجمهور أنه نفّذ الاتفاق الذي تم بينهم ودفع لي المكافأة.

وبحركة دراماتيكية تسلّمت الشيك منه ووضعته في محفظتي بكلّ تأنٍّ ثم عدت إلى المنصّة وأخذت مكبّر الصوت بيدي وقلت:

ـ سادتي: إني أشكركم على دعوتكم، كما أشكركم على لفتتكم الكريمة، إلا أني من حيث المبدأ أرفض أية مكافأة عن محاضرة تتصل بقضيتي. ولكني سأسمح لنفسي في هذه الحالة بالذات أن أخرج عن القاعدة وأقبل مكافأتكم الرمزية، فشكراً. إلا أن لي طلباً عندكم. إني أود التبرع بهذه الدولارات المئة إلى دار الأيتام التي يرعاها كنيسكم متمنيّةً للأطفال مستقبلاً زاهراً في كنفكم.

وعندها فقط ضجّت القاعة بالهتاف والتصفيق. تحوّلت الوجوه العدائيّة الواجمة إلى ابتسامات تشجيع وترحيب، واتجه الحضور نحوي بعضهم يصافحني، وبعضهم الآخر يربّت على كتفي ويمازحني، وانهالت الدعوات علي إلى البيوت وتراكمت البطاقات الشخصية في يديّ.

تركتهم وأنا مطمئنّة بأن هذا الحشد اليهودي في «بروكلن» في «نيويورك» لن ينغمس من الآن فصاعداً في أمور إسرائيلية دون أن يذكر ولو لثوانٍ وجهاً إنسانيًّا لشبحٍ فلسطينيٍّ التقى به لساعات قليلة في كنيس ما في «بروكلن».

# الإعلان

ظهرت في أواخر الستينات تنظيمات سياسية سوداء في معظم أنحاء الولايات المتحدة بعضها يساري والآخر يميني تزامنت جميعها مع حركات السلم الشعبية والطّلابية المنادِية بإنهاء الحرب في «ڤيتنام». كما اتسمت معظم تلك التنظيمات السوداء بتعصُّب عرقيٍّ مشروع وحنينٍ للعودة إلى الأصل - أي إلى القارة الأم. وراج شعار «كل ما هو أسود جميل». فانتشرت تسريحات الشعر الأفريقية التقليدية ورافقتها الثياب الزاهية والأغاني والموسيقى الفولكلورية وما يتبع ذلك من نداءات أذكت شعور الاعتداد بالنفس واعتماد مظاهر التباهي بالجذور الأفريقية. وبدأ الشعب الأميركي يسمع بأسماء قادةٍ سود جَدُد كـ «مارتن لوثر كنج»، و«إيلاجة محمد»، و«ستوكلي كارمايكل»، و«مالكوم أكس»، و«أنجلا ديفيس» وغيرهم. أخذنا نحن الإعلاميين العرب نراقب هذا التطور الإيجابي لدى من اعتبرناهم حلفاءنا الطبيعيين في الولايات المتحدة، فكنا نرصد تصريحاتهم ونلاحظ صياغتهم المتخبطة لسياستهم الخارجية وبوادر علاقاتهم مع القوى والأحزاب التقدمية العالمية. وأكثر ما أقلقنا في بادىء الأمر تلك السذاجة السياسية التي بدت بوضوح في تصريحات بعض الزعماء السود إبان حرب عام ١٩٦٧ وبعد العدوان الإسرائيلي

التوسعي. فبينما كان اليهود الأميركيون يهلّلون ويكبّرون لإسرائيل ويقيمون المهرجانات ويجمعون التبرعات بملايين الدولارات كانت الحركات السوداء الفتيّة تحاول الإعراب عن استيائها من هذا التصرف الصادر عن مواطنين أميركيين. وجرت عدة صدامات كلامية بينهم برهن الطرف الأسود فيها عن عدم تفهمه الكامل لخلفيّة الصراع الصهيوني ـ العربي، كما برز خلالها شعور السود المكبوت بأن اليهود الأميركيين كانوا يفرضون عليهم الولاية فكريًّا واقتصاديًّا، فأخذ بعضهم يهاجم اليهود علناً دون أن تتوفر لديه الحجج الكافية للطعن بالصهيونية وفضح ممارساتها العنصرية. كان الأمر جديداً على إخواننا السود الذين كانت صِلاتهم بالعالم الخارجي وبالحركات والأفكار التقدمية تقام لسنوات خلت بواسطة يهود أميركيين ادّعوا التقدمية ونصّبوا أنفسهم أولياء عليهم. والآن وقد أخذ السود زمام الأمور بأيديهم فقد بدا من الواضح أن علينا نحن العرب أن نغتنم هذه الفرصة لنتعاون معهم لردم الفجوات وتبادل الآراء والتنسيق بين مختلف وجهات النظر.

فأسرعنا نحصي تحركاتهم ونجمع المعلومات المتوافرة عن قادتهم وأيديولوجيّاتهم المختلفة كما جنّدنا إمكانيّاتنا للتعرف عليهم شخصيًّا وفتح الحوار معهم ومدِّهم بكل ما يمكن أن يحتاجوا إليه من معلومات تاريخية كانت أم معاصرة حول الوضع في الشرق الأوسط، وحول القضية الفلسطينية ومواقف الدول العربية التقدمية، وكذلك لتعريفهم بالصهيونية كحركة استعمارية استيطانية عاصرت الحركات الاستعمارية الاستيطانية في القارة الأفريقية وقلّدتها وتحالفت معها.

ولم تكن مهمّتنا سهلة التطبيق، ففي الوقت الذي كنا فيه نحن العرب نرسم الخطط كانت الـ إف. بي. آي. (أي دائرة الأبحاث الفديرالية الأميركية) ذات الفعل والصيت المخيفين تتغلغل في صفوف اليسار الأسود، وكان من السهل على «الدائرة» استئجار الوجوه السوداء ودسّها في صفوف المناضلين الحقيقيين واستخدامها للتجسس على اتصالات اليسار الأسود والبحث عن علاقاته السياسية الجديدة.

لذا فقد كان صعباً علينا نحن العرب التفريق بين المناضل الحقيقي والخائن المدسوس.

وبالرغم من المخاطر التي كنا نخوضها بمحض إرادتنا والتي أدّت فيما بعد إلى منع بعضنا من دخول الولايات المتحدة وإلى ملاحقة البعض الآخر واستجوابه، أو حتى ترحيله من البلاد. بالرغم من كل هذا ثابرنا على اتصالاتنا بالإخوان والأخوات السود وأخذنا نجتمع بهم بانتظام فنتبادل المعلومات ونعمّق الصلات ونعمل معهم بحماس وثقة متبادلة. وفي إحدى جلساتنا هذه تم قرارنا على أن نفاجىء الرأي العام الأميركي بإعلانٍ سياسيٍّ موقَّعٍ من قِبل أكبر عدد من الأميركيين السود ذوي الأسماء اللامعة من سياسيين وأدباء ورياضيين وأهل فن وغيرهم.

وقد هدفنا إلى تحقيق أمرين من هذا الإعلان السياسي عن الشرق الأوسط الذي اخترنا له أداةً لنشره جريدة «**النيويورك تايمز**» ـ أكثر الجرائد الأميركية انتشاراً لدى الجهات التي كنا نستهدفها: الأمر الأول كان لتوعية القراء السود عامّةً بإيجاز

موقفهم من قضية الشرق الأوسط وذلك بعرضه كموقف تبنّاه زعماؤهم ونجومهم والشخصيات السوداء الأخرى التي يحترمون رأيها. أما الأمر الثاني فكان لإغاظة الأعداء عامّةً ولتسديد ضربة موجعة مفاجئة لبعض اليهود الأميركان الذين ادعوا اليسارية أو الليبرالية وارتاحوا لاعتقادهم بأن سيطرتهم على الحركة السوداء متينة وغير قابلة للتغيير.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن أسلوب الإعلان السياسي على صفحات الجرائد كان ولا يزال أسلوباً متّبعاً في المجتمع الأميركي، لا بل إن أعداءنا الصهاينة يستخدمون هذا الأسلوب بشكل دوريّ، فلا يمرّ أسبوع أو اثنان حتى يظهر إعلان سياسيّ جديد يمجّد إسرائيل والصهيونية.

وبإمكاننا القول إن أواخر الستينات شهدت «حرباً إعلانية» - أو حرب إعلانات - شرِسة اندلعت على صفحات الجرائد الأميركية.

أول ما اصطدمنا به من عقبات عند البدء بهذا المشروع عدا تشعّباته وتعقيداته التي سأعود لسردها في وقتٍ لاحق بهظ التكاليف. فالصفحة الكاملة في جريدة «النيويورك تايمز» كانت تكلف ٥٠ ألف دولار، ومن أين لنا بمبلغ كهذا؟ فلم يكن لنا نحن كأفراد ولا لأصدقائنا الجدد كذلك من الإمكانيات المادية ما يكفي لتغطية مبلغ ضخم كهذا. وأسفرت اجتماعاتنا عن اتخاذ قرار بالاكتفاء بنصف صفحة نجمع ثمنها من الأفراد والجهات الصديقة الأخرى. وألّفنا لجنة خاصّة لجمع المبلغ. من جهة بدأنا جلسات

عمل لوضع نصٍّ لإعلانٍ يرضي الجميع، ثم قمنا بمسحٍ سريع للأسماء اللامعة مع عناوينها. ومرّت أسابيع قبل وضعنا آخر الرسائل والنصوص في صندوق البريد.

تألفت لجنة مصغّرة أخرى من الإخوان والأخوات السود. وتبرّعت شخصيًّا بتمثيل الطرف العربي. لم أكن أتوقّع ما سيعترضنا من صعوبات وتعقيدات وتأخير. فلقد كان لكل طرف مشكلة مختلفة وكلما واجهنا أحد الموقّعين باعتراض كان علينا أن نعيد صياغة النص وتعميمه على كل الأطراف بعد الأخذ باقتراحه. فقد كان بعضهم يعترض على كلمة بعضهم الآخر لا تعجبه فكرة ما فهو يحبذ زيادةً عليها أو حذفها وهكذا. وكلما حُلَّت عقدة كانت تبرز عقدة أخرى حتى كدنا نفقد صبرنا ونتخلى عن المشروع برّمته.

كنا نجتمع مساءً في شقّتنا ـ وعلمنا فيما بعد أن الشقّة كانت مراقبة من قِبل أجهزة الأمن ـ وكثيراً ما كنّا ننسى مرور الوقت فنشعر بالجوع فنرسل بطلب «البيتزا» و «الكولا» من الخارج ونكمل المناقشات، إلى وقت متأخر من الليل. كنا نعتبر الحصول على أي توقيع جديد نصراً جديداً فنبتهج ونهنىء أنفسنا وعندما حصلنا على عدد لا بأس به من التوقيعات لم يبق لنا إلا حجز مكان الإعلان وتحديد موعد نشره.

لم أعد أذكر السبب الذي حدا بي إلى استلام المبلغ المرقوم بأكمله: ٢٥ ألف دولار أميركي عدًّا ونقداً تعهّدْتُ بتسليمها بدوري لأحد الإخوان السود ليقوم بدفعها إلى قسم

الإعلانات بالجريدة المذكورة وذلك في اليوم السابق لظهورها كما كانت تتطلب شروط الجريدة.

ما زلت أذكر بوضوح شكل الأخ الأسود الأميركي الذي كُلِّف باستلام المبلغ ودفعه. كان «بول» الذي كنت تعرَّفْتُ عليه سابقاً شابًا أسود فقيراً جدًّا عرّف بنفسه كـ «تروتسكي» من حيث المبدأ والعقيدة وكساعي بريد من حيث العمل.

كان «بول» يوحي بأنه تعِب دوماً فعلامات الإنهاك واضحة على وجهه الذي شاخ قبل أوانه وكانت مشيته ثقيلة وظهره منحنياً وعيونه تعبة. وكل هذه العلامات كانت جميعها تدلّ على هموم ومتاعب شخصيّة كان «بول» يكبتها أو يحاول نسيانها عند انخراطه في مناقشة سياسية. وأذكره جالساً في ركنٍ من غرفة الجلوس في شقتي الصغيرة يلتهم «البيتزا» تلو الأخرى بشراهة غريبة. وكان يتعمد الجلوس دوماً على بعد خطوات من الحلقة.

كنت في بعض الأحيان أحاول أن أتصوّر حياة «بول» وغيره من أصدقائي السود الجدُد: أين يعيش هؤلاء؟ في أيّ أحياء: «هارلم»؟ وكيف يتحمّلون الفقر والقذارة والجريمة في مدينة «كنيويورك» التي تستضيف أغنى أغنياء العالم وتحتقر كل من لا يحمل بطاقة «الأميركان أكسبرس»!

دخلت مع «بول» إلى غرفة في مكتب الإعلام العربي وأقفلت الباب خلفنا ثم بدأنا بعدّ الدولارات: ٢٥ ألف دولارٍ فقط لا غير. مبلغ لم نَرَ مثله طوال حياتنا. وعندما انتهينا من العدّ لا أذكر إلا وقد شمّر «بول» عن «بنطلونه» وبدأ يدسّ بالأوراق النقدية

في جواربه. ولنِ أنسى ما عشت منظر تلك الجوارب الممزَّقة التي كشف عنها دون خجل وهو يحشوها بأوراق نقدية مختلفة الفئات. وسجَّلَت عيناي التناقض في هذا المنظر الغريب: ثياباً رثّة، وحذاءً مهترئاً، وجوارب ممزقة، ومئات من الأوراق الخضراء التي فقدت شكلها وهيبتها، ولا أذكر إلا وهو يستدير عند الباب قائلاً:

ـ «سأعود في الثانية وأحضر لك الإيصال». ثم اختفى.

مرت الساعات ثم الدقائق ببطء شديد وبدأت أراقب كل ثانية وأقفز من مقعدي عند سماع أية حركة. ما الذي جعلني أثق به؟ كيف قمت بتسليمه المبلغ بأكمله دون إيصال ودون شهود؟ إني لا أعرف عنوانه ولا حتى اسم عائلته. وحصل ما توقَّعته. مرّت الساعة الثانية ولم يرجع «بول» فأخذت ألوم نفسي بشدّة أكثر: ألم أر بؤسه؟ ألم أدرك مدى فقره؟ كيف سلّمت مبلغاً كهذا إلى مَن عرفْته فقيراً معدماً؟ إلى ساعي بريد لا يملك ثمن جورب؟ كيف فعلت ذلك دون الاستعانة بشهود من قبلهم أو من قِبَلنا؟ ومرّت ساعتان أخريان كانتا من أطول ساعات حياتي. وما إن شارفت الساعة على الخامسة حتى استجمعت شجاعتي لأواجه «السيد المدير» الذي كان مكلَّفاً رسميًّا بتمويل المشروع، وأشاركه مخاوفي. ذهبت إليه راكضة وأنا أكاد أسمع دقات قلبي وأفضيت إليه متلعثمةً بكل ما في صدري: «تصوّر... لقد سلّمت «بول» المبلغ بأكمله ولم يعد بعد.. سلّمته مبلغ الـ ٢٥ ألف دولار.. وعد أن يعود عند الساعة الثانية... وقد شارفت

الساعة على الخامسة ولم يحضر. ماذا أفعل؟ أقصد ماذا نفعل؟».

نظر إلى ساعة يده ثم رفع بصره إلي وقال ببرود:

ـ أنت تدركين أنك مسؤولة عن هذا التصرف الأرعن فإذا أخلّ هذا الأسود التعيس بعهده وسرق المبلغ فأنت المسؤولة أمام مكتب الإعلام. ثم أضاف وكأنه لم يكتفِ بحُكْمه: «لا شك أنك طائشة. كيف تسلّمين مبلغاً كهذا دون شهود ودون استلام إيصالٍ موقّع؟ سامحك الله». قالها وأدار لي كتفه وكأنه يؤكد تنصُّله من كل مسؤولية! إذاً بالنسبة «للسيد المدير» كانت العملية تجارية مثلها مثل أية عملية تجري في بورصة «نيويورك». لم أعد أعي شيئاً. عدت إلى مكتبي وأنا أقدّر العقاب ولم أتمكّن من استيعابه بأكمله، فالمبلغ يقتضيني أشهراً لا بل أعواماً من حياتي أدفع فيها ثمنها راتبي وراتب زوجي مجتمعين كي أفيه.. وتبخّرت النشوة القومية!

أسرعت إلى الهاتف وطلبت رقم عمل زوجي وابتدأت دون مقدّمات أشكو له وضعي، وسردت قصة تعاستي مفعمة بالحقد على النفس وندب الحظ وانتهيت بقولي: «لقد تنصّل «السيد المدير» من مسؤوليته وأعلمني رسميًّا أنه في حال فقدان المبلغ سأُعتبر أنا شخصيًّا المسؤولة». ولم يقاطعني زوجي بل جاء صوته الهادىء مليئاً بالتشجيع والمساندة:

ـ لا عليك... سيأتي «بول» وإن لم يأتِ سنتحمّل الخسارة معاً.. لا، أنت لست طائشة بل أنت مؤمنة بقضيّتك

وعلينا أن نتقبّل نتائج جميع ما تقومين به من نشاطات: الناجحة منها والفاشلة. احتفظي بأعصابك.

تسمَّرت بنغمات صوته الخافت الرزين وبقِيت أستمع دون مقاطعة، وإذا بأحدهم يفتح الباب بسرعة وهو يقفز قفزاً نحوي. أقفلت السمّاعة وفتحت ذراعيّ لأضمّ شابًّا أسود شريفاً عاد وبيده إيصال موقّع من قِبَل جريدة «**النيويورك تايمز**».

وفي اليوم التالي ظهر «الإعلان الأسود» في مكان بارز من جريدة «**النيويورك تايمز**» ولم يبق عربيٌّ في «نيويورك» إلا وتقبَّل التهاني على هذا النص الباهر بمن فيهم «السيد المدير».

# هوليود دوماً على حق

«نقطة ماء لا بأس من إضافتها إلى البحر»، هكذا كنا نقيّم أيّ نشاط إعلاميّ في الولايات المتحدة، وكلُّنا ثقة بأننا سننجح يوماً ما في إتْقان هذا الفن، فنحوّل محيط الرأي العام الأميركي لصالحنا ونُبحر في مياهٍ أقلّ عِدائيّة وهيجاناً. وكان غيظنا المتزايد من انتصارات الإعلام الصهيوني وإبداعه بشحذ هذه المساهمة التي اعتبرناها واجباً مقدّساً يقع على أكتافنا كأفراد وكجماعات.

وتمشيًّا مع هذا المنطق الساذج الذي كان يُملي علينا سياستنا الإعلامية في أوائل السبعينات صمَّمت شخصيًّا أن أقبل دون تردُّد أيّة دعوة تُوجَّه إليّ للتكلم حول القضية دون وزن أهمية الجهة الداعية إليها، مدرسة ابتدائية كانت أم جامعة شهيرة، ودون النظر في تفاصيل الرحلة إلى المكان المحدّد: مريحة كانت أم متعبة. الأهم بنظري كان هو المساهمة وذلك بإضافة نقطة أخرى. لعن الله الأميركيّين الذين يتسلّون على حساب قضيتنا دون أن يملّوا من مشاهدة مباراة أخرى بين كلب وقطّ، الأعداء بطبيعتهم. وكان يروق لعريف تلك المباريات الأميركي أن يقدِّم ضيوفه وكأنهم يرتدون قفازات ملاكمة، ويتكهّن مسبقاً بأن لا حلّ لقضية الشرق الأوسط ولا أمل في تعايشٍ عربيّ/ يهوديّ. لذا فقد أصبح من أهدافنا إصلاح هذا الاعتقاد الخرافي الفاسد

والتركيز على كسب تأييد جماهيرٍ راهنوا مسبقاً على نجاح لاعبهم المفضّل في الحلبة ومنحوه تعاطفهم ومساندتهم فهو زميلهم وهو حليفهم، لا بل هو قبل كل شيء شبيههم في عاداته وتقاليده وتفكيره وإنجازاته وطبعاً في شكله.

عندما قبلت دعوة كلية . . . الواقعة في أقصى أدغال «نيوجرسي» لم يحذِّرني أحد من صعوبة الوصول إليها، أي من طول الرحلة وتعقيداتها. لم أدرك وقعتي السوداء إلا عندما قرب موعد تلك المغامرة بالذات فطلبت من سكرتارية مكتب الإعلام العربي في «نيويورك» المخطّط فَرَمَتْ أمامي ورقةً كبيرة اختفى بياضها من كثرة الأرقام والتعليمات المطبوعة عليها:

ـ ما هذا؟ هل تنوون إرسالي إلى «تمباك تو»؟

ـ ليس بالتمام، إن الكلية الداعية تقع في منطقة نائية من الولاية، بالرغم من أن ولاية «نيوجيرسي» مجاورة لولاية «نيويورك».

ـ أتفضّلين أن نستعرض المراحل سويًّا؟

واحتراماً لخلل دائم في بوصلتي العضوية نتيجة رسوبي المستمر في مادة الجغرافيا في المرحلة الابتدائية من تعليمي قمنا باستعراض تحرّكاتي نحو الهدف خطوةً خطوة: أولاً، باص ثم قطار ثم سيارة تاكسي ـ إذا وجدت ـ ثم باص آخر أستقلُّه حتى موقفه الأخير في إحدى القرى، فأنتظر الفرج هناك حيث ينتظرني

الطلبة الداعون في سيارة خاصة لاصطحابي إلى كليّتهم المحترمة.

يضاف إلى هذه التعليمات ذكر لأسماء الباصات وأرقامها واتجاهاتها ثم موعد قيام القطار ووصوله إلى المدينة المعيَّنة ـ أما التاكسي فأمره متروك للأقدار، ثم اسم باص آخر ورقمه وساعة وصوله وركوبه. . إلى ما هنالك من التفاصيل المبهمة.

ثم بِلُغة مبسّطة وبخطٍّ صغير أُضيفت العبارة التالية في آخر الصفحة:

«أما بالنسبة لطريق العودة فهي معكوسة»

«يا إلٰهي! ماذا اقترفت من ذنوب لكي أُعاقب بالزج في سراديب كهذه؟»

وجاء يوم امتحان «بطّوطتي» فارتديت أكثر ملابسي راحةً (الجينز الدولي) وموّنت نفسي بكتاب ومجلة وسندويشة وماء وقهوة وقصاصات من الجرائد لكلمات متقاطعة وأخيراً، بنسختين من الورقة السالف ذكرها خوفاً من إضاعة الأصل والطريق معاً.

بقيت الكلمات المتقاطعة دون حلّ والكتاب مغلقاً نتيجة خوفي من الصعود إلى باص بدل الآخر أو إلى طائرة بدل قطار. وبالرغم من طول الرحلة والملل منها فقد كانت تبدو المجلة غريبة عند إعادة كل تصفُّح جديد لها.

حطَّمت رقماً قياسيًّا ـ ساعدتني في تحطيمه وزارة المواصلات الأميركية ـ بوصولي إلى نهاية مطافي وحدي بعد

الموعد المحدد بثلاثة أرباع الساعة فقط لا غير. هبطت من الباص الذي تمتعت به وحيدة منذ الموقف قبل الأخير فوجدت نفسي محاطةً بصحراء خضراء لا أثر للسكان فيها ما عدا صرحاً حضاريًّا حديثاً بشكل غرفة انتظار مفروشة بكراسٍ مريحة مجهَّزة بأحدث الوسائل السلكية واللاسلكية.

الولايات المتحدة بلد الفنون والجنون! ارتخيت على كرسيٍّ واستسلمت للانتظار أو لربما النسيان، ولأول مرة بدأت مقالات مجلتي المُستهلَكة تتخذ معاني مفهومة إلا أن ارتخاء أعصابي المشدودة رافقته رغبة في سرقة دقائق من النوم. سجّل عقلي، وأنا بين اليقظة والنوم، وصول باص آخر تبعه لغطٌ وحركة وكلام وعلامات استفهام، ثم فجأة عاد الصمت إلى هذا المأوى الساكن. بعد غفوة أخرى ليس بمقدوري تحديد مدّتها عاد اللغط وعادت التساؤلات.

استويت جالسةً في مقعدي وأنا أشاهد شابًّا أشقَر يستخدم الهاتف العمومي المنتصب أمامي، وسمعته يقول بتأكيد:

لا لم نجدها.. لا يوجد أحد هنا.. هذه المرة الثالثة التي نأتي لاستقبالها... لا لم تأت... (ثم بصوت خافت) هناك فقط امرأة تنتظر منذ ساعات... تريدني أن أسألها إذا كانت قد رأتها؟... لا! لا! لا أفهمك.. غير وارد... ثم انقلبت معالم وجهه فجأة وهو يتفحّصني بدقة ويسأل وهو يبعد السّماعة عن أذنه ببطء ودهشة:

أأنت؟.. أأنت المحاضِرة؟ أنت عربية؟. هذا غير معقول!

# وجه أسود قناع أبيض

رسالتي هذه لن تلقى تجاوباً أو تسفر عن جواب، كما أني لا أنتظر من البريد أن يحملها إلى وجهتها الأصلية، فلا اسم عليها ولا عنوان، وها أنا أخطُّها بلغة لا يفهمها مستلِمُها عساني أرفض في الاشعور أيّ تفاهم بيننا بلغة مشتركة. لعلّي أكتبها لإراحة الضمير أو للتنفس عن الألم والإحباط اللذين يعاودانني بعد سنوات طويلة نتيجة تصرُّف إنسان، ذكراً كان أم أنثى، إلا أنني سأعتمد استعمال صيغة المذكّر للمخاطبة كوني أشعر بالسليقة أن الخيانة هذه اقتُرِفَت من قِبل رجل. كما أنني اخترت أن تكون رسالتي هذه مفتوحة، والرسائل المفتوحة ـ كما نعلم ـ قليلاً ما يقرأها الشخص المعنيّ بها فهي تبقى ملكاً للعموم ومهمَلة من طرفه، فالرسائل بطبيعتها خاصّة ومُغلقة يودِعها البشر في مغلَّفات يُحكمون لزق أطرافها ويتأكدون من بقاء محتوياتها شبه سرّيّة، ثم يضعونها في صندوق للبريد محكم الإغلاق. أما رسالتي هذه فعائمة لكونها مفتوحة، غايتها الإفصاح عن عواطف وأفكار تتصارع للمثول أمامكم لعلها تريحني بمجرد خروجها إلى حيّز الوجود.

وأخيراً سأوجّهها إلى أميركيّ أسود مجهول:

عزيزي المجهول/ أو عزيزتي المجهولة:

منذ تعرفت على الزعيم الأسود «ستوكلي كارمايكل» عام ١٩٦٨ في دمشق أثناء زيارته التضامنية للقطر على أثر حرب الـ ٦٧ الغاشمة وأنا أحبّ كلّ أسود وأجرّده من جنسيّته الأميركية فأبادله المحبة دون تحفُّظ أو تردُّد.

كُلِّفت بمرافقة «ستوكلي» الذي كان يحمل في ذلك الحين لقب «رئيس وزراء الفهود السود»، وعشقته قلباً وعقلاً وقالباً كما أنشأت وإياه قواعد صداقة متينة ما زلت أفاخر بها ليومنا هذا: (أتذكر عهد «ستوكلي»، أيها الخائن لمبادىء «ستوكلي»؟).

حسناً، في أحد الأيام اصطحبت «ستوكلي» في زيارة لأحد المخيّمات الفلسطينية في سيارة رسميّة وُضِعَت تحت تصرُّفه. كنّا نحتّل المقعد الخلفيّ وذراعانا مستندتان إلى قاطع في منتصف المقعد. وبينما كنت أتأمّل شكله الرجوليّ الجميل تسمَّرَت عينايّ على ذراعينا: إحداهما سوداء كالفحم، والأخرى ناصعة البياض. فتساءلت بيني وبين نفسي (من منّا ليس بعنصريّ فليرمني بحجر): وسألته:

ـ ما الذي حداك أن تقطع آلآف الأميال للتضامن معنا نحن العرب؟ وكأنه قرأ أفكاري، نظر إليّ نظرةً نافذةً بعينيه اللوزيّتين وأجاب:

ـ أخت «رندة»، لعلّك لا تدركين بعد بأنك سوداء أكثر مني!

أعدْت النظر بسرعة إلى ذراعينا وإلى قضيتنا فانقلبت

معاييري ولا تزال كذلك حتى اليوم. أأدركْتَ الآن لماذا تعلّقت بكم أنتم الأميركيين وتبنّيت قضاياكم واضعةً كل ثقتي بكم؟ أفهمتَ الآن مقدرَتي على الاختلاط معكم وتصرّفي الطبيعي كواحدة منكم ولكم وليس كغريبة من عرق كريه؟ أفَهِمْتَ لماذا كان ارتياحنا متبادلاً وتامًّا؟

أمضينا السهرات ونحن نتبادل المعلومات ونوعيّ بعضنا بعضاً عن تاريخ نضالنا وعن مبادئنا السياسية فنقارن بينها ونتجادل ونخرج بخطط مشتركة.

كما تذكر، كنّا وقتها نستخدم شقّتي الصغيرة وكأنها مقرّ حزب غير آبهيْن بالعالم الخارجي أو بما يدور حولنا من مؤامرات وتجسس.

أتذكر كيف ابتدأنا نلاحظ بعد فترة أننا وُضعنا تحت المراقبة عن بُعد وكيف ضحكنا يومها وأطلقنا النكت على حساب الآذان الخفية؟

أوَتذكر اليوم الذي أعلمتكم فيه بأن أحدهم قد دخل شقّتي أثناء غيابي فصدّقني بعضهم وكذّبني بعضهم الآخر بمن فيهم زوجي الذي استبعد أن نكون مؤهّلَيْن للمراقبة من قِبَل ال إف. بي. آي. أو غيرها من الجهات الأمنية الأميركية وسكتُّ على مضض وما زال شيء ما غير ملموس أو مرئي في جوّ شقّتي يقنعني بأن حدسي في محلّه. وعندما تأكّدتُ من الإشارات المُرْسَلة من قِبَل حاسّتي السادسة رحَّلْتُ طفليَّ الحبيبين إلى لبنان مختارةً العيش بدونهما لأتفادى إصابتهما بأيّ شرٍّ يمكن أن يلحق بهما.

كما تذكر ولا شك المجهود الجبّار الذي بذلناه كمجموعة ثلاثة عشر منكم وأربعة منا لتهيئة الإعلان الأسود الذي أحدث في حينه ضجّةً كبرى في الأوساط البيضاء والسوداء واليهودية الأميركية، إذ إنه عبّر ولأول مرة في تاريخ علاقتنا عن تضامن شخصيات سوداء مرموقة مع الحق العربي. أقمنا احتفالاً يوم ظهوره على صفحات «النيويورك تايمس». شغلنا عن النوم ليلةً بكاملها.

ثم ولدت بعد ذلك فكرة دعوتكم كمجموعة إلى بلادنا في جولة تثقيفية سياسية تشمل لبنان وسوريا والأردن، ولم يكن من السهل تحقيق هذا الحلم، فمن تحضيرٍ إلى تمويلٍ إلى ترتيباتٍ مع الجهات المُضيفة. ولم أتغلّب على اليأس الذي كان يعاودني عند كل عقبة جديدة إلا باستعادتي الفرح الذي كان يلمع في عيونكم عند استعراض تفاصيل الرحلة المنتظَرة، وكانت عيناك أنت، ولا شك، تلمعان بين العيون.

لا تعتقد أني لم ألاحظ الكاميرات التي كانت تصوِّرنا أثناء صعودنا إلى الطائرة فلقد سجّلتُ لمَعان عيونها الحمر هي أيضاً، ولكنني عُذْتُ وأقنعت نفسي بأن المُخْبِر غريب عنا وبأنه يتصرف بدافع الغيرة والحسد.

في بلادنا تعرَّفتم على الكرم العربي، كما تعرَّفتم على المأساة العربية الكبرى: مأساة شعب فلسطين، ولمستم آمالنا عن قرب وشاركناكم خُبزنا وملحنا كما ذقتم لحومنا وطيّباتنا وطِيبتنا.

هل لك أيُّ اعتراض على ما صدر منا؟ هل أزعجك شيء

ما أو شخص ما؟ ألم تعد إلى الولايات المتحدة وأنت تحمل أغنى الذكريات منها المُسلّية والمؤثرة والجديّة والهزلية؟ لقد أحاطك شعبنا العربي بحبٍّ واهتمام وبدا لي حينها وكأنكم جميعاً تبادلونه الحب والاحترام ، فماذا دهاك أيها النذل؟

في طريق عودتنا إلى بلادكم البعيدة وبينما كنتم تسردون مغامراتكم بعضكم لبعض وتتقاسمون الذكريات كنت منزوية في مقعدي بالطائرة المتّجهة غرباً أجفّف دموعي ثم أعود وأشهق غصّة على تركي ولديّ خلفي وهما في أجمل سنوات طفولتهما وألذها وفي أشد حاجتهما إليّ وإلى والدهما، ألاحظتَ دموعي التي لم تتوقف عن الانهمار طيلة الرحلة الطويلة جدًّا أم أنك كنت تتأهب لِما سوف تُلفّقه لأسيادك من أكاذيب وأقاويل فانشغلت عن مراقبتي مراقبةً دقيقة؟

أيها المخبر الحقير،

كانت لديّ رغبة ملحة لأن أكيل اتهاماتي إلى جهة خارج مجموعتكم وأن أشير بإصبعي بعيداً عنكم، إلا أن الأحاديث المشوّهة التي وُجِّهت إليّ فيما بعد بقوالب تهم لا بد أنها صدرت عن شخص عاصرها وإن كان يبيّت نيّة خبيثة.

وصلنا إلى بلدكم، أقول بلدكم لأنكم أنتم الأصل. أما البيض فمعظمهم متطفل جديد أتى من بلاد البيض ليقاسمكم رزقكم فالتحق لتوّه بعِداد مستعمريكم وتطوع في صفوفهم منصّباً نفسه سيّداً عليكم، أتخدم هؤلاء إذاً يا صديقي، هؤلاء الذين

يمتصّون دم بني جنسك، ويثرون من وراء استغلال أحفاد القارة السوداء العريقة؟

مرّت أشهر وضاق الحبل الخفيّ حولي وحول زوجي وازداد المراقبون جسارةً. أذكر أننا كنا نُمضي سهرة زوجيّة هادئة نشاهد خلالها برنامجاً تلفزيونياً هو مستلقٍ على الكنبة ورأسه في حضني وأنا أمشط شعره الغزير بأصابعي بنعومة، فإذا بالباب الخارجي لشقّتنا الجديدة ينشقّ ثم يُغلق بسرعة، قفز زوجي بسرعة ليلحق بهذا المتطفل فلم يجد أحداً. كما أنكر بوّاب عمارتنا الكذّاب رؤية غريب في الجوار. أيروق لك أن يُعتدى على خلوتنا نحن اللذين يحترمان حرّيّتكم ويناضلان من أجل اكتمال حقوقكم؟

وأخيراً أصابنا (قنص الساحرات) الذي تميّز به عهد الرئيس الأميركي «نكسون» والذي أثبت فيما بعد عن كونه عهد التجسس والسرقات، أتراك اشتركت أيضاً في عملية «ووترغيت»؟

وأخيراً نتج عن مساعيك ما كنت تبغيه، إذ وُجِّهت لي ولزوجي تهمة العمل من أجل قلب النظام في الولايات المتحدة مقرونةً بتهمة تدريب مجموعة من السود الأميركيين على حرب العصابات مما يهدد أمن وسلامة الولايات المتحدة بأكملها. وتبرّع الوفد الأميركي في الولايات المتحدة بإعطاء التفاصيل عند الطلب، تلك التفاصيل التي اخْتَلَقْتَها في سبيل منْعِنا من دخول الولايات المتحدة. لا تقلق يا صديقي المُخبِر، فالأمر لم يزعجنا ألبتة، بل وإننا اعتبرناه وساماً على صدرَينا، وعندما تراجع الأميركيّون عن قرارهم لم نجد مبرّراً للابتهاج أو الاحتفال.

وأخيراً، يا عزيزي، هل ما زلت تعتقد أني لا أعرف هويّتك؟ دعني أؤكد لك بأني أتعرّف عليك أينما وجدت لأنك، يا مُخبري العزيز، أسود يلبس قناعاً أبيض، كيف لا أعرفك وأنا ما زلت أسود منك بكثير؟

**التوقيع**

**عربية**

# الحمد لله على السلامة

كانت الحياة في ذلك الفجر نشوة دائمة أما الشباب فكان الجنة بعينها

**الشاعر ووردزورث**

كنا نقفز على السحابة السابعة، كنا نرقص فرحاً ونرتجف حماساً، أخذتنا النشوة فعلَت أصواتنا وفرقعت ضحكاتُنا، كنا نتكلم بهياج فلا نسمع بعضنا بعضاً. ولم تشهد مائدة غداء حلقةً مشحونة بالعاطفة كمائدتنا هذه: احتفال عائلي أقامه الوفد الفلسطيني إلى الأمم المتحدة في تشرين الثاني/ نوفمبر عام ١٩٧٤ ساعاتٍ قليلةً بعد إلقاء الخطاب التاريخي الذي تبعه مصافحة رئيس الوفد وتلقّيه التهاني من قِبَل العشرات من ممثّلي الدول. مكان الاحتفال: غرفة صغيرة تابعة لمطعم «الأمم المتحدة» حُجزت مُسبقاً خصّيصاً لهذا الغرض، شاركتنا في هذه الجلسة المغلقة البريئة الطابع بعض الشخصيات الفلسطينية/ الأميركية التي كانت قد وضعت نفسها وخبرتها تحت تصرّفنا خلال وجودنا في الولايات المتحدة وجميعها من العقول الفلسطينية ذات الوزن العالمي الثقيل.

خفّت الضجّة نسبيًا عندما ذكّرنا أحدهم أن غداءنا هذا

يُشكِّل لقاءً أخيراً للوفد ككل، فقريباً جدًّا ينْهي رئيس الوفد مهمّته ويغادر الولايات المتحدة في زيارة رسمية إلى «كوبا» تمّ الاتفاق عليها خلال وجودنا في «نيويورك» ووُضع برنامجها بالتعاون مع سفير «كوبا» وممثِّلها الدائم إلى الأمم المتحدة «ريكاردو». وما إن طُرح موضوع السفر والافتراق حتى تبخَّرت النشوة فهدأ الجمع وارتسمت على وجوهنا علامات الحزن والضياع: «غداً نهار آخر».

أما رأسي الذي كان يدور ويدور فلمعت في داخله ذكرى وعدٍ شخصيٍّ كان قد قطعه على نفسه رئيس الوفد في العام السابق وفي «الجزائر» بالذات ـ يومها كنت أتغزّل بـ «كوبا» وبأهلها وبمنجزاتها الثورية وبجمالها وخاصّة بفِديلِها». وكنت قد زرت «كوبا» واستمتعت بعواطفها الثورية. تجاوب القائد وفتئذٍ ووعدني قائلاً: «سأصطحبك معي إلى «كوبا» عندما أقرر زيارتها رسميًّا». وها قد تألّف الوفد الرسمي المتوجِّه إلى «كوبا» واسمي ليس في عداده. رفعت صوتي فوق الأصوات التي كانت قد همدت نوعاً ما وقلت بحرقة:

«ألم تَعِدْني في «الجزائر» أن تُلحقني بأول وفد فلسطينيٍّ يزور «كوبا»؟

وساندني في طلبي هذا الحضور دون استثناء بينما حاول الرئيس أن يتنصّل بقوله:

«إن سبب إبقائك في «نيويورك» يعود إلى خبرتك الإعلامية في الولايات المتحدة ليس إلا!»

فعلّق أحدهم على تلك الفتوى بقوله:

ـ «إن للمرأة شأناً كبيراً في الثورة الكوبية، في حين أن ثورتنا بحاجة إلى تنعيم صورتها الخشنة. برأيي أن وجود الأخت في عدادكم لربما يساعد في التناغم بيننا وبين أصدقائنا الكوبيين ولذا فإني أصوّت لصالح ضَمِّها إلى الوفد ـ ».

لم تحتج المسألة إلى إقناع أوفى. وبهزّة رأسٍ خفيفة أصبحت في عِداد الوفد المتجه إلى «كوبا».

لم تُتَحْ لي الفرصة أن أُعلم زوجي العضو في الوفد السوري إلى دورة الأمم المتحدة بهذا القرار المفاجىء فأعلمت من وعدوني أن يُعْلِموه بالأمر، ولم أكْتَفِ برسول واحد. أما موعد السفر وتفاصيله فلم يكن يعلمها إلا قلّة من ال إف. بي. آي. المجموعة المكلَّفة منها بحراستنا بالاتفاق مع أمن وفدنا المُحاصر.

لم أعد أذكر كيف مرّ ما تبقّى من النهار والقسم من الليل الذي أمضيته لأول مرة بصحبة رفيقاتي في الوفد الفلسطيني في غرفة جماعية انتقلنا إليها بطلبٍ من المكلّفين بأمننا أيضاً، وكنا لأيام فاتت نتمتع بغرف مستقلة.

رنّ جرس الهاتف قبل بزوغ فجر«نيويورك»:

صوت رسمي: الأخت رندة؟

ـ نعم.

الصوت: جاهزة؟

ـ نعم.

الصوت: انتظرينا أمام مصعد طابقك بعد عشر دقائق ومعك حقيبتك وشكراً.

ـ شكراً أخ.

ارتديت ملابسي بسرعة فائقة وأخذت أبحث في الظلمة عن حقيبتي وأنا أتفادى الدوس على أجساد رفيقاتي المُمَدّدة على أرض غرفة الفندق المشترَكة، ولم أكد أصل إلى الباب حتى سمعت صوتاً نَعِساً يتساءل:

«إلى أين أنت ذاهبة يا رندة؟» فلم أجب.

أتباهى دوماً بأني أعرف جزيرة «مانهاتن» أكثر من سكانها الأصليين الرُّحَّل بحكم عملهم، ومع ذلك فلم أتمكّن حتى يومنا هذا من رسم الطريق التي اتَّبَعها ركْب الوفد الفلسطيني تلك الليلة للوصول إلى الطائرة «الجزائرية» التي كانت بانتظارنا في أحد مطارات «نيويورك». أقول أحد المطارات لأني لم أتعرف حتى الآن على المطار ـ وهناك ثلاثة مطارات في المدينة ـ الذي قبعت الطائرة على أقصى مُدرجاته بانتظار الإقلاع إلى «كوبا». قادنا رجال ال إف. بي. آي. حتى سلّم الطائرة ودفعونا داخلها دون مراسم.

وما إن استقريت في مقعدي المواجه لمقعد رئيس الوفد وسحبت نفساً طويلاً راسمةً ابتسامة راحة باتجاهه حتى هبط عليّ هول الموقف، لماذا أنا هنا؟

وأولادي، وزوجي، وأهلي، وشبابي والحياة الحلوة؟ والأمور المعلّقة؟ والكلام الذي أريد أن أقوله أو أسجّله و و. . . نظرت حولي فإذا بالجميع واجم ممتقع. خيَّم صمت مرعب داخل الطائرة الرابضة على المدرج. ماذا ننتظر؟ ومن؟ لم أتمكّن من طرح السؤال رهبةً واحتراماً للمشاعر والأفكار المضطربة التي بقيت مغلقة داخل علبة مغلقة اسمها طائرة. تداولنا التساؤلات الصامتة من عين إلى أخرى: هل تنفّذ «عصبة الدفاع اليهودية» التي يقودها الرابي الإرهابي «ماير كاهان» تهديدها الآن وتقضي على ألدّ أعدائها ورفاقه؟

كانت العصبة «قد أطلقت هذا الإنذار منذ أن وطئت أرجل وفدنا الفلسطيني أرض «نيويورك» ـ وكْرها المحصَّن ـ وتلقّتها المخابرات الأميركية بكل جدّيّة فسعت إلى حمايتنا ليلاً نهاراً وحاصرتنا بقدر الإمكان، إما داخل المبنى الزجاجي للأمم المتحدة أو في الفندق الذي دجَّجَتْه برجالها فانقلبت إلى قلعة محصّنة ـ أما الآن فلقد انتهت مهمّة الأمن الأميركي. عساهم قد خطَّطوا مع «العصبة» التي بوسعها اصطيادنا بصاروخ بدائي من نوع أرض/ جوّ من قارب في البحر بعد أن تغادر الطائرة الأراضي الأميركية؟ ليتني أوْصَيْتُ زوجي ببعض الأمور المتعلقة بأولادي قبل السفر، ليتني ودّعته، ليتني مؤمنة، ليتني مستسلمة!

ليتني لم. . . .

وإذا بصوت سيارة تقترب من بعيد نحو الطائرة الصامتة. بعضنا كبرت مخاوفه وتسارعت دقات قلبه بمن فيهم أنا، أما رجال

أمننا فبدت عليهم علامات الاطمئنان، وهم دائماً أدرى، الحمد لله!

قفز «ريكاردو» ـ سفير «كوبا» إلى داخل الطائرة وقبل أن يحتل مقعده دارت محركات الطائرة متأهبة للإقلاع، ثم أقلعت.

أمامنا ثوانٍ، إن اجتزناها نكون قد حقّقنا حياة جديدة وبعدها سنحلّق في آفاق جديدة. ومرَّت ومرّ معها الخوف، واجتزنا الخطر. فكّ كلٌّ منا رباطه، وأشعلت سيجارةً ونهضت من مقعدي أتفقَّد الأخوة وأتحسّس أعضاء جسدي وكأني أهنئها بالنجاة: مليون الحمد لله على سلامتنا! واستغلّت الطبيعة كعادتها هذه المناسبة لتشارك برموزها الجبارة: نظرت من خلال نافذة فإذا بشمس نهار جديد تطالعني ـ فجر جديد في استقبالنا؟

أنهيت جولتي وعدتُ إلى مقعدي لأجد «ريكاردو» متجهّم الوجه عابساً ينتقل بنظره إلى اليمين والشمال وكأنه يتوقع مفاجأة مجهولة آتية من السماء. وفي حين كان الجميع دون استثناء قد ارتاحت نفسه واطمأن فقد بقي هو لوحده صامتاً ومضطرباً جدًّا حتى حطت الطائرة في «هاڤانا» واستقبلنا «فيديل كاسترو» بطلعته المهيبة وبلطفه المعهود.

مرّت ستة أعوام قبل أن ألتقي بـ «ريكاردو» مرة أخرى.

اجتمعنا أنا وزوجي وهو حول المدفأة في بيتنا الهادىء في «جنيف»، وجرّنا الحديث إلى رحلتنا الانتحارية تلك. وخطر لي أن أجد الجواب على السؤال الذي حيّرني منذ سنوات:

ـ «ريكاردو»، عزيزي ـ لدي سؤال يندفع لطرح نفسه ـ أتذكر الارتياح الكامل الذي بدا على الجميع عند اجتياز طائرتنا حدّ الخطر من أيٍّ هجوم كان من قِبَل «عصبة الدفاع اليهودية»؟

ـ نعم، أذكر.
ـ ولماذا استمرّيت أنت ترتجف وتعرق إذاً؟

حاول أن يُجيبني بابتسامة غامضة إلا أن علامات التساؤل المصرّ على وجهي أجبرته على أن يفشي بسرّه:

ـ يا لها من ليلة لعينة! لقد كانت المخابرات الأميركية قد أبدت نيّة طيّبة للتنسيق مع وفدنا في الأمم المتحدة بشأن تفاصيل رحلتكم إلى «كوبا»، وكانت تحاول قدر الإمكان الاحتفاظ بموعد إقلاع الطائرة حتى آخر دقيقة لكي تقلل من إمكانية تسرُّبه إلى الجهات المعادية ـ وعندما أعلمَتني بعد انتظار طويل أصبحت مهمتي الاتصال بـ«هافانا» لإبلاغها بموعد وصول الطائرة بالتحديد فإذا بي أجد أن الخطوط الهاتفية والبرقية بين وفدي في «نيويورك» و«كوبا» قد انقطعت انقطاعاً تاماً.

انتظرت حتى آخر لحظة دون جدوى ثم قررت اللحاق بكم إلى المطار الذي قادني إليه فريق من المخابرات الأميركية كان بالانتظار تاركاً مهمة الاتصال لزملائي في الوفد، وتساءلت حينذاك هل هي خدعة أميركية؟

ثم أضاف: «والآن أفهمتِ يا صديقتي؟ لم أكن خائفاً من

صاروخ صهيوني. إن الرعب الذي لا يزال يعاودني أحياناً في أحلامي كان من صاروخ كوبي أرض/ جوّ يُطلق على طائرة مجهولة الهوية تخترق الأراضي الكوبية دون إذن مسبق. والآن ردّدا معي: الحمد لله على السلامة».

# الفهرس

# هذا الكتاب

ظروف عديدة، معظمها خارج عن إرادتي وخياري، اجتمعت لتُثقلني بذكريات حياة غنية بالأحداث، حافلة بالتجارب منها المشرق ومنها القاتم. فمن ضياع فلسطين إلى دخولي سلك التعليم ثم زواجي من دبلوماسي سوري، كاهن في معبد العروبة... صفحات انطبعت في ذاكرتي، فجاءت هذه النفثات تسترجعها بقلم زوجة [دبلوماسي] شاركت في الحياة العامة، بحكم عملها كإعلامية في الولايات [المتحدة] الأميركية، إلى جانب كونها مدرّسة ومحاضرة.

وقد اخترت أن أسرد هذه النفثات كما حصلت في ال[...] ليست قصصاً قصيرة، بل إنها حصيلة تجارب وانطباعات و[...] جو الساحة الأميركية التي تدور فيها المعارك الإعلامية [...] الصهيونية وأبواقها الضخمة.

